إيبارشية المنيا وأبو قرقاص
للأقباط الأرثوذكس

دراما الصلب

الجزء الثانى

دراسة حول :

الشخصيات والأماكن والأدوات

إعداد :
مكاريوس
الأسقف العام

اســـم الـكـتـاب: **دراما الصلب (الجزء الثاني)**

الـــمـــؤلـــف: **الأنبا مكاريوس، الأسقف العام.**

الـــنـــاشـــر: إيبارشية المنيا وأبوقرقاص للأقباط الأرثوذكس.

الـــطـــبـــعـــة: الثانية – مارس ٢٠١٧

الـــمـــطـــبـــعـــة: مطابع النوبار – العبور

الـــغـــلاف: القس بولا وليم

الـــعـــنـــاويـــن: مجدي لوندي

التنســيق الداخلي: عادل بخيت

رقـــم الإيـــداع: ٢٠١٥/٥٤٩٦

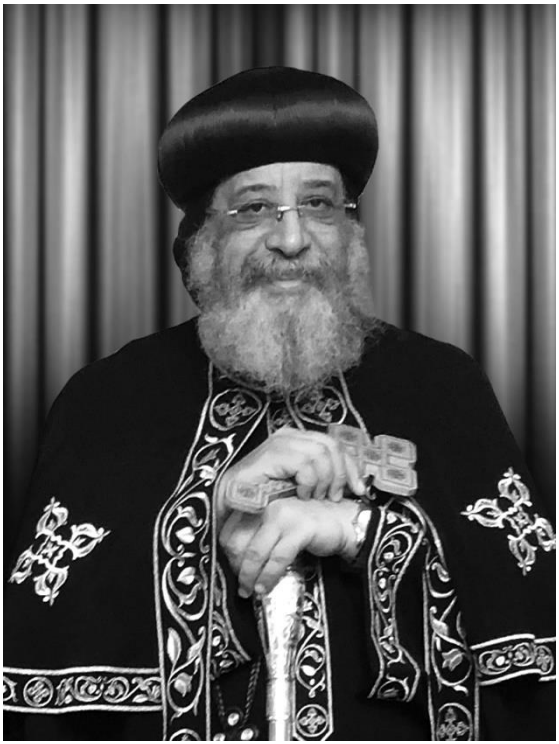

قداسة البابا الأنبا تواضروس الثاني

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية في مصر وسائر بلاد المهجر

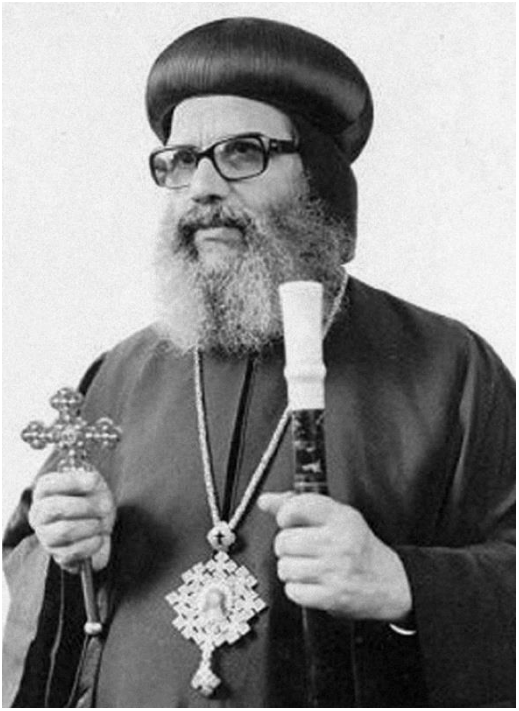

نيافة الأنبا أرسانيوس

مُطران المنيا وأبوقرقاص

مقدمة

هذا هو الجزء الثاني من كتاب "دراما الصلب" حيث صدر الجزء الأول منذ سنوات، وأرجو أن يجد فيه القارئ العزيز بعضًا من التعزية والمنفعة، ولعله يكون رفيقًا له في هذا الأسبوع.

فعلى الرغم مما في هذا الأسبوع من أحداث جسيمة، ما بين حسد اليهود للسيد المسيح، ورفضه والوشاية به وتسليمه للرومان، وما تبع ذلك من محاكمات وإهانة وجلد وتعذيب ثم صلب ثم موت، ومع أن الكنيسة تتشح بالسوداء فيه، ويشتد النسك ويمتد الصوم، إلّا أن الأقباط يحبون هذا الأسبوع حبًا يفوق الوصف، فيتقاطر الشعب بكافة فئاته على الكنائس. ومثلما احتلت أحداث الآلام والصلب مساحة كبيرة من العهد الجديد، فقد حظيت هذه الأحداث بمساحة كبيرة من ليتورجية الكنيسة، واُختُصَّت بأعذب الألحان وآلاف من التأملات والتفاسير المنشورة أو المسموعة. ويكسو الشعب مسحة من الوقار والصمت المقدس، كما يُعَد هذا الأسبوع بحقٍ موسم توبة نقية وفرصة لمراجعة النفس. حقًا وُصِف الأقباط بأنهم "خين نيفاوي" أي المتعلّقين بالسماء.

وهنا نلقي بعضًا من الضوء على جانب من أحداث هذا الأسبوع، ففيها من الثراء والغنى الشيء الكثير، بدءًا بسبت لعازر حيث استبق الرب

الأحداث واقتحم الموت في عقر داره واستخلص لعازر منه، ومن ثَمّ تآمر عليه اليهود، إلى دخوله الانتصاري لأورشليم، إلى تبكيت الأمة اليهودية التي لم تعد تثمر كالتينة التي استحقت اللعنة، إلى أحاديث الرب عن الوزنات والتوبة وخراب أورشليم ونهاية الأيام، إلى التآمر عليه بين اليهود ويهوذا، ثم تقديم جسده ودمه عنا، إلى ليلة القبض عليه في جثسيماني، إلى رحلة المحاكمات طوال الليل وحتى أُسلِم ليُصلَب، والأحداث العظام التي رافقت ذلك حتى استراح في القبر في السبت، وهو حيٌّ لا يموت، ثم يتكلّل كل ذلك بقيامته المقدسة إذ لم يكن ممكنًا أن يُمسَك من الموت، وحينئذ تتهلّل الكنيسة "المسيح قام، بالحقيقة قام".

الرب يبارك هذه الصفحات القليلة بصلوات حضرة صاحب الغبطة والقداسة البابا الأنبا تواضروس الثاني، وشريكه في الخدمة الرسولية نيافة الحبر الجليل الأنبا أرسانيوس مطران المنيا وأبوقرقاص، ونعمة الرب تشملنا آمين.

أسبوع البصخة

أيام الصوم الكبير هي أجمل أيام السنة، وأسبوع الآلام هو أهمّها وأقدسها، ويُسمّى أسبوع الآلام، وأسبوع البصخة، والأسبوع الكبير، والأسبوع المقدس. وقديمًا كان الناس يغلقون متاجرهم ويوقفون تعاملاتهم التجارية خلال هذا الأسبوع، ويلزمون الكنيسة طوال الأسبوع، يصلّون بخشوع ويتتبّعون رحلة آلام الرب وصلبه ويفرحون بقيامته. حتى العبيد كانوا يُعفَون أسبوعين، وحتى المجرمين كان يُسمح لهم بالاشتراك في البصخة لعلهم يتوبون، كما كان الملوك أنفسهم يتخشعون فيخفّفون أحكامهم في هذا الأسبوع.

ويلتزم الناس الخشوع والتكريس، يؤجّلون أيّة قراءات عادية (مثل الجرائد والطرائف والعلوم العادية والكوميديا وما شابه). كما يراعون أن يكون الاهتمام بالمظهر أقل.. تقلّ الأكسسوارات، المكياج، الروائح، ثمن الثياب، بل أن النساء التقيات في بعض المدن والقرى يتّشحن بالسواد، فلا يصبح السواد مجرد وسيلة إيضاح في الكنيسة بل تمتد الكنيسة إلى البيت فيتحول البيت إلى كنيسة، وكذلك قُبلة يهوذا – ومع أنها مجرد وسيلة إيضاح في الكنيسة للتذكرة – فقد كان الناس قديمًا يلتزمون هذا الطقس حتى خارج الكنيسة، بحيث لا يصبح الأمر وكأنه تمثيلية وإنما معايشة حيّة

للحدث. لقد كنّا ونحن صـغار نحتفظ بالصـلبان السـعف وقربانة خميس العهد وحنوط الدفن وورد الصـلبوت طوال العام. وفي هذا الأسـبوع تُرفع حالة الطوارئ في البيوت، مثلما كان يحدث في البيت اليهودي في الفصـح إذ يتغيّر شكل البيت والبرنامج اليومي للبيت، وكانت الأم تنبه وتنذر وتبشّر قبل البصـخة بأسـابيع بأن أسـبوع الآلام اقترب وعلينا أن نسـتعد للتفرغ للعبادة.

أمّا الطعام فقد كان للأقباط طقس فيه لا يتهاونون فيه، ويظن البعض أنه بسـبب الانشـغال في العبادة الكنسـية لا نجد الوقت الكافي لطهو أنواع من الطعام وهذا موجود في الأديرة بالطبع، ولكنـه كـان يحدث في البيوت أيضًـا، وبالمثل الحلوى والمشـهّيات والتسـالى وغيرها... بل يمتد ذلك أيضًـا إلى الراديو والتلفزيون والتنزهات ولقاء الأصدقاء وجلسات السمر والأحاديث التليفونية وغيرها... هذا وتمتلئ الكنائس في أسـبوع الآلام أكثر مما تمتلئ في وقت آخر من السـنة حتى في الأعياد السـيدية الكبرى، وتتشـح بالوقار لا بالسـواد، فإن هذا السـواد تعبّر به الكنيسـة عن مشـاعرها تجاه آلام المسيح. ويتسابق الناس لإحضـار الأغصـان والورود والسـعف، ويتسـابقون في حجز مقاعدهم ومعهم كتبهم، حتى إن أكثر الكتب طباعة ومبيعًا هي كتب قراءات أسبوع الآلام، بأشكال وأحجام وألوان ومقاسات...

متى يبدأ أسبوع الآلام؟

يبدأ هذا الأسبوع منذ سبت لعازر حيث يتشاور رؤساء اليهود على السيد المسيح، بعد معجزة إقامة لعازر من الموت، فقد مرت معجزات شفاء المرضى وإخراج الشياطين ببعض التفاسير وقليل من التأثير، ولكن إقامة ميت أنتَنَ في القبر أحدثت دويًا هائلًا، لاسيما وقد بدأ السياح يتوافدون عشرات ومئات الآلاف من كل بلاد العالم للاحتفال بالفصح، يسمعون بالمعجزة وجاءوا ليروا يسوع، وبالتالى سيبشرون به في بلادهم، الأمر الذي أزعج رؤساء اليهود: «إِنْ تَرَكْنَاهُ هكَذَا يُؤْمِنُ الْجَمِيعُ بِهِ، فَيَأْتِي الرُّومَانِيُّونَ وَيَأْخُذُونَ مَوْضِعَنَا وَأُمَّتَنَا» (يوحنا١١:٤٨). وعقد اليهود مجمعًا صرّح فيه قيافا بأنه خير أن يموت واحد عن الأمة.

اقتحم المسيح الموت يوم السبت، والسبت هو اليوم الذي يسبق الحياة الجديدة بالقيامة، وكان هو آخر سبت.

أحد الشعانين:

في ذلك اليوم يدخل المسيح علنًا كملك متواضع، وكان اليهود يتساءلون: هل يأتي في العيد؟ وكان المسيح يحضر أعيادهم الكبيرة (مثل المظال والتجديد والفصح)، وحين هتف له الشعب لم يكن ذلك دعاية من التلاميذ، ولكن اليهود ارتعبوا والقيادة أفلتت من أيديهم أمام أناس يُحيّون ملكهم: «أوصنا.. خلصنا..»، فحاولوا قتل لعازر نفسه لكى يتخلصوا من

دليل هام على مسيانيته. وقالوا في حسرة ومرارة: «انْظُرُوا! إِنَّكُمْ لاَ تَنْفَعُونَ شَيْئًا! هُوَذَا الْعَالَمُ قَدْ ذَهَبَ وَرَاءَهُ!» (يوحنا١٢: ١٩).

هذا وتدور قراءات اليوم حول رئيس كهنة الخيرات العتيدة الذي سوف يتألم. ومزمور إنجيل القداس يقول: «بوِّقوا في رأس الشهر»، والبوق هو بداية الاحتفالات.

ونهتف جميعًا في ذلك اليوم: "تعالَ خلّصنا.. هوشعنا.. مباركٌ الآتي باسم الرب.. أوصنا يا ابن داود...".

لماذا لا نقيم القداسات وسط الأسبوع؟

أغلقنا ستر الهيكل عقب قداس الأحد، وتوقفت ذبيحة الإفخارستيا، الحَمَل تحت الحفظ أربعة أيام، والمسيح يرتّب لتقديم ذبيحة نفسه، ويذكّرنا ذلك بالفردوس المُغلَق أمام آدم وبنيه حتى يُشفوا من سم الخطية... بل نصلي البصخة خارج الخورس.. حيث خرجنا إليه خارج المحلة لنتألم معه، لأن المسيح تألم خارج المحلة، قال القديس بولس: «فَلْنَخْرُجْ إِذًا إِلَيْهِ خَارِجَ الْمَحَلَّةِ حَامِلِينَ عَارَهُ» (عبرانيين ١٣: ١٣)، ولأن الذبائح التي كانت تُقدَّم عن الخطية كانت تُحرَق خارج المحلة، ومثل الأبرص الذي يتطهّر خارج المحلّة... ومثل المؤمن الذي يتطهّر من خطيته خارج الهيكل أولًا، ليتناول لاحقًا. بل يُخيَّل إلى الناظرين عن بُعد أن الشعب كله في مناحة: الألحان

مؤثرة، الكنيسة متشحة بالسواد، خشوع ومهابة يغطيان المكان، لا يوجد شيء ناقص سوى صراخ وعويل (تقوم به بعض الألحان مثل "بيك ثرونوس".. وعند الدفن لحن "الجلجثة").

المسيح يبكي أورشليم:

تأوّه السيد المسيح متحسرًا عليها قائلًا: آه لو كنت تعلمين ما هو لخلاصك، لكن قد أُخفي عن عينيك!! «إِنَّكِ لَوْ عَلِمْتِ أَنْتِ أَيْضًا، حَتَّى فِي يَوْمِكِ هذَا، مَا هُوَ لِسَلاَمِكِ! وَلكِنِ الآنَ قَدْ أُخْفِيَ عَنْ عَيْنَيْكِ» (لوقا١٩: ٤٢)، لقد جاء إليهم وهم رفضوه.. يفتخرون بالهيكل وهو يراه سيُهدَم.. يبحثون عن ملك أرضي وهو ملك السلام.. اهتموا بأن يتركوه على الصليب ليذبحوا خروف الفصح!! ولم يعلموا أنهم إنما تركوا الحَمَل الحقيقي الذي كانت ترمز إليه جميع الذبائح. يحفظون النبوات عن ظهر قلب ولا يعرفون أنه هو المسيا.. يناقضونه ويصادرونه وهو رب السبت، يحاكمونه وهو قاضي القضاة ورب الأرباب وإله الآلهة.

اثنين البصخة:

أحد الشعانين عيد عظيم رائع مليء بالبهجة، دخل المسيح أورشليم ليؤسّس مملكته الجديدة، وقدم نفسه ملكًا وكاهنًا، فنقض الهيكل (هيكل جسده)، وحوّل الكهنوت اليهودي إلى الكهنوت المسيحي، والذبيحة بذبيحة

نفســـه، والأمـة اليهوديـة بـأولئك الآتين من المشـــارق والمغارب، غيّر الكهنوت.. والطقوس.. والفكر.

هذا حدث يوم الاثنين، حيث أشـــارت التينة إلى الأمة اليهودية (ولمّا حكم عليها بأنه لن يعود فيها ثمر يبســـت، وكان ذلك يعني الحاجة إلى شـــجرة جديدة.. وبتطهير الهيكل تنتهي الذبيحة ويتقدس المكان). وفي هذا ردٌّ على تخوّف اليهود من الرومان في حالة تبعية الشـعب للمسـيح، فحين قالوا عن الرومان: «يَأْخُذُونَ مَوْضِـعَنَا وَأُمَّتَنَا» (يوحنا١١:٤٨)، ويقصـدون الهيكل وتحوُّل اليهودية إلى ولاية رومانية، طهّر المسـيح الهيكل واسـتبدل الأمة بالأمم بل وأعطى آدم أن يكون مدنيًا (أعطاه الجنسية السمائية).

ثلاثاء البصخة:

كان للســيد المســيح تعاليم رائعة في هذا اليوم، أكد خلالها على عدة مفاهيم، مثل: المُلك الجديد (الجزية لقيصــر)، وأن البشــر في الســماء لا يزوّجون ولا يتزوّجون (متى٢٢)، وبكّـت اليهود من خلال مثـل الكرّامين الأردياء ومثل عرس ابن الملك. كانت تعاليمه في ذلك اليوم بمثابة الحكم النهائي على الرافضـــين له، ولذلك تردّد الكنيســـة في هذا اليوم لحن "بيك اثرونوس" (عرشـــك يا الله).. أي أننا موافقين عليك ملكًا لنا.. تجلس على عرش قلوبنا.. أسِّسْ مملكتك.. وأشبعنا من دسمك.

أربعاء أيوب:

وسُمّى هكذا لأن التقليد يفيد بأن أيوب البار اغتسل من أمراضه وشُفي في ذلك اليوم..ولكن أيوب شُفي بآلام السيد المسيح «الَّذِي بِجَلْدَتِهِ شُفِيتُمْ» (بطرس الأولى٢:٢٤). كما أن أيوب من بعض الجهات يشير إلى المسيح من جهة الآلام والصبر.

كان السيد المسيح قد ترك الهيكل إلى الأبد: «هُوَذَا بَيْتُكُمْ يُتْرَكُ لَكُمْ خَرَابًا» (متى٢٣:٣٨). وهناك حادثتان هامتان في ذلك اليوم: قارورة الطيب حيث تقدّم البشرية له خضوعها وجهادها وتلقّبه عريسًا وملكًا لها، وتستبق يوم التكفين لتكفينه بما يليق قبل السبت المتعجّل؛ والحادثة الثانية خيانة يهوذا، لتؤكد الكنيسة أن العنصرين موجودان دائمًا: المحب علنًا والخائن سرًا.. الرافض والقابل، الهالك والمخلَّص.. ولكن السيد المسيح عامل الاثنين برفق شديد. لذلك تنشد الكنيسة في يوم الأربعاء اللحن الرائع "آفتشنون" (كلامه ألين من الدهن وهو نصال).

خميس العهد:

يوم مزدحم جدًا بالأحداث المتلاحقة، ويوم مشحون بالألحان والطقوس والقراءات: دورة خيانة يهوذا، غسل الأرجل، الإفخارستيا، وعندما نفتح ستر الهيكل فنحن نصوّر الذي حدث بأنه خيانة وطرد، ولذلك نحن نمارس دورة تبكيت يهوذا، لكي نصوّر ما فعله.

فمن جهة اللقان: كان الإنســـان يحتاج إلى تطهير، وجاءت قراءات اللقان لتتحدث عن ذلك: «أرشُّ عليكم ماءً فتطهرون»، هكذا نتطهّر خارج المحلة.. لقد أسّــس الرب خدمته على الاتضـــاع، وكما غُلِب آدم بالكبرياء يَغلُب آدم الجديد بالاتضـــاع. ومن جهة الإفخارســتيا: أراد الله أن يُشـــبِع الإنسان فخالف وطُرد، فلما تطهّر استحق أن يعود ليأكل من شجرة الحياة. وقد سُمّي خميس العهد بهذا الاسم لأن السيد المسيح أسس عهدًا جديدًا على دمه الأقدس، ليس كالعهد القديم الذي قطعه مع الآباء حين أخرجهم من أرض مصر. وأما الخروف فاستُبدِل بالحمل الحقيقي الذي يرفع خطية العالم، « لأَنَّ هذا هو دَمي الّذي للعَهدِ الجديدِ الّذي يُسفَكُ مِنْ أجلِ كثيرينَ لمَغفِرَةِ الخطايا» (متى٢٦:٢٨).

يوم الجمعة الكبيرة (الطويلة):

يوم واحد ولكنه كأنه دهر، فهو مليء بالأحداث المتلاحقة. بعد الإفخارستيا مضى الرب إلى جبل الزيتون وبدأ يحزن ويكتئب لأن ساعته قد جاءت.. ومن هناك أخذه العســكر ويهوذا. وحُوكم أمام حنّان ثم قيافا.. ثم أمام السنهدريم، وفي الصباح أمام بيلاطس، والذي حاول إنقاذه سبع مرات! وهذه المحاكمات أثبتت أنه بلا عيب، ولأنه بلا عيب فإنه ســيُقدَّم ذبيحة لأنه يُشترط في الحمل وبالأحرى الحمل الحقيقي ألّا يكون به عيب. ورغم كل المحاكمات التي أثبتت براءته.. أصعد ذاته وبسط يديه: "أسلم ذاته فداءً عنا". ونلاحظ أن الأمم اشـــتركوا مع اليهود في موت المســـيح

والذي جعل الاثنين شـركاء في الذبيحة، هذا الاشـتراك الذي سـاهم في أن يكون موت المسـيح بالصـليب وليس بالرجم أو بطريقة أخرى. وعندما يكون السيد مُعلَّقًا على الصـليب نرتل له لحن "أومونوجنيس" والذي يشـرح لاهوت الابن الوحيد، فالمُعلَّق ليس إنسـانًا فحسـب وإنما الكلمة المتجسـد، الواحد مع الآب والروح القدس، والذي يليق به التمجيد والسـجود، وهو أصـعد ذاته رائحة بخور وطِيب أمام الآب، ولذلك أيضـا يُقال هذا اللحن عند تجليس البطـاركـة فـالمسـيح هو رئيس الكهنـة الحقيقي. كمـا نرتـل لحن "بيـك اثرونوس": «عرشـك يا الله إلى دهر الدهور»، نمجده كملك مالك على قلوبنا وهو الذي صـرّح بأن مملكته ليسـت من هذا العالم: «أجابَ يَسـوعُ: مَملكَتي لَيسَـتْ مِنْ هذا العالَمِ. لو كانتْ مَملكَتي مِنْ هذا العالَمِ، لكانَ خُدّامي يُجاهِدونَ لكَيْ لا أُسَـلَّمَ إلَى اليَهودِ. ولكن الآنَ لَيسَـتْ مَملكَتي مِنْ هنا» (يوحنا١٨:٣٦). وقد مات المسـيح في وقت ذبيحة الفصـح بعد الكلمات السـبع التي نطق بها على الصـليب، كما ثارت الطبيعة.. وفيما نحن نشـاركـه آلامـه في ذلك النهار، لا نرتـاح نحن إلا إذا أنزلنـاه عن الصليب لندفنه.

سبت الفرح:

نزل المسيح إلى أقسام الأرض السُفلى وسبى سبيًا، رغم أنه ميت إلا أنه أمات الموت، فهو الميت الحي. وسـبت النور يوم له طعم خاص جدًا،

الآن تمتلئ فيه الكنائس، وتشـــيع البهجة والراحة في النفوس الممزوجة بخشوع، تسهر الكنيسة بجوار عريسها وهو في قبره تسبحه وتشكره لأنه حيٌّ وهو مخلصـــها. ليلة يغلب عليها "الارتياح" أكثر من الفرح والتهليل، مقارنة بعيد القيامة.

إنها أجمل أيام السنة..

سبت لعازر

في ذلك اليوم نحتفل بمعجزة إقامة لعازر من الموت. في السبت قام لعازر وكان قد خُلِق يوم الجمعة (خلقة الإنسان كانت في اليوم السادس من أيام الخليقة). الله قادر أن يصلح ما فسد، ويقيم من مات، ويعيد الحياة إلى من أعطاه الحياة؛ والله لم يرسم لنا ألّا نموت وإنما أن نقوم من الموت، ومن خلال تصريح الرب نفسه فإن الموت هو نوم «لعازَرُ حَبيبُنا قد نامَ» (يوحنا ١١:١١)، وفي معجزة إقامة ابنة يايروس صرّح الرب: «إنَّ الصَّبيَّةَ لَمْ تمُتْ لكنها نائمَةٌ» (متى٩:٢٤)، وبالتالي فالنوم هو موت قصير بينما الموت الذي هو نوم طويل. ونقول في لحن "يا كل صفوف السمائيين": "قد قام الربّ مثل النائم". وسبت لعازر إشارة وظلّ لقيامة الرب المجيدة، ولذلك يسميه البعض "أحد صغير" أو "قيامة صغرى".

هذا السبت والذي يُعرَف بسبت لعازر، سُمي في الكنيسة الأولى "إعلان الفصح": باعتباره إعلانًا وتمهيدًا لموت الرب وقبره وقيامته. ويقف هذا السبت بين الصوم الأربعيني وأسبوع الآلام والقيامة، هو تمهيد لقيامة الرب (بروفة لها)، فلقد ذهب الرب إلى الموت مبكّرًا ليعلن للخليقة كلها: لأحبائه وأعدائه، للبشر وللشياطين، وللموت نفسه، أنه لن يمكن أن يُمسَك منه، بل وأنه لن يمكث في القبر المدة التي قضاها لعازر في القبر؛ كما

أنه قصـــد أن يتوّج بها معجزاته ســـواء معجزات الشـــفاء أو طرد الأرواح النجسـة أو إقامة الموتى، وهي المعجزة التي أفقدت رؤسـاء اليهود رشـدهم، فاختلّ توازنهم وتخبّطوا في قرارهم بشـــأنه، إلى حد التفكير في قتل لعازر نفســه (جســم المعجزة) «فتشـــاوَرَ رؤَســـاءُ الكهنةِ ليَقتُلوا لعازَرَ أيضًـــا» (يوحنا١٢: ١٠). لم يفرحوا بقيامة لعازر من الموت، ولا بقيام مخلّص بهذا المسـتوى الذي يفوق طموحاتهم فيه، مثلما تذمروا على المعجزات التي تمت في السبوت، وها هوذا المعجزة الصـادمة تأتي في السبت أيضًـا، بل اقترن السبت ولعازر أحدهما بالآخر! "سبت لعازر".

على القبر بكى يسوع كإنسان له نفس وجسد وروح، وسلّمنا كيف نبكي ونتألم ونتعاطف مع الآخرين: «فلَمّا رآها يَســـوعُ تبكي، واليَهودُ الّذينَ جاءوا معها يَبكونَ، انزَعَجَ بالرّوحِ واضـطَرَبَ... بَكَى يَسـوعُ» (يوحنا١١: ٣٣، ٣٥)، وفي الأصـــل اليوناني تأتي دموع يســـوع مختلفة عن دموع الأختين وكذلك دموع اليهود الذين كانوا معهما، وسـلمنا الرب في هذه المعجزة كيف نشـارك الآخرين وجدانيًا، مثلما فعل في عرس قانا الجليل أيضًـــا مما جعل القديس بولس يوصـــي: «فرَحًا مع الفَرِحينَ وبُكاءً مع الباكينَ» (رومية١٢: ١٥)، وحظي لعازر بأجمل لقب ألا وهو: «لعازر **حبيب** الرب»، فحين أُبلِغ السيد المسيح بالخبر قيل له: «يا سيِّدُ، هوذا الّذي **تُحِبُّهُ** مَريضٌ» (يوحنا١١: ٣)، بل أعلن الرب نفسه لتلاميذه: «لعازَرُ **حَبيبُنا** قد نامَ» (يوحنا١١: ١١)، وكان

بيت لعازر ومريم ومرثا هو المكان المحبوب الذي يحلو ليسوع أن يستريح فيه.

عندما بكى المسيح عند القبر أظهر حقيقة بشريته، وعندما أمر لعازر أن يقوم أكّد سلطان لاهوته وسلطانه على الموت، ولماذا يتعجب الناس؟ أليس هو معطي الحياة فكيف نستكثر أن يعيد الحياة إلى ميت؟ ليس ذلك فقط وإنما سيقوم جميع الموتى عند البوق الأخير: «لا تتعَجَّبوا مِنْ هذا، فإنَّهُ تأتي ساعَةٌ فيها يَسمَعُ جميعُ الّذينَ في القُبورِ صوتهُ، فيَخرُجُ الّذينَ فعَلوا الصّالِحاتِ إلَى قيامَةِ الحياةِ، والّذينَ عَمِلوا السَّيِّئاتِ إلَى قيامَةِ الدَّينونَةِ» (يوحنا ٥:٢٨،٢٩). ويقول بعض الشُرّاح إن الرب يسوع كان من الممكن أن يقيم لعازر بمجرد إرادته، ولكنه ناداه باسمه ليقوم لعازر فقط، وإلا لقام جميع الأموات الذين في قبور تلك المنطقة!

هذا وتقرأ الكنيسة هذا الفصل من الإنجيل في قداس الأحد الرابع من شهر أبيب، حيث تدور قراءات الشهر كلها عن كرازة الرسل، كتعبير عن طبيعة وماهية إرساليتهم، أي إقامة موتى الخطية إلى الحياة. ولتؤكد أن القيامة هي العمود الفقري للكرازة والمسيحية، كما أنه من الفصول الهامة عند تعزية أهل المنتقلين، لتعلن الكنيسة أن موت الشخص ليس بنهاية المطاف، ومن ثَمّ نصلي في أوشية الراقدين: "لا يكون موتٌ لعبيدك بل هو انتقال". إن الناس عادة ما يصمتون ويعجزون أمام الموت، ولكن الرب هنا يسلّمنا أن الموت يمكن التفاهم فيه، وأنه وإن كان للموت سلطان على

الناس إلّا أنه بانتصار المسيح على الموت قد فقد هذا السلطان، وأصبح المسيحيون لا يخشونه، بل يفرحون به، بل يطلبونه، بل أصبح هناك ما يُسمّى بـ"عطية الموت"!

ولعلنا نلاحظ بُعدًا ليتورجيًا آخر، ألا وهو أن الرب سلّم الخدام أن يحلّوا لعازر ويطلقوه، فحينما خرج الميت، وكان لا يزال مربوطًا (حين يعترف الشخص، يظل مذنبًا؛ ولكي تُنزع عنه خطاياه يلزمه الحلّ)، قال للخُدَّام: «حُلّوهُ ودَعوهُ يَذهَبْ» (يوحنا١١: ٤٤)، إنه يقصد «ما تحلُّونه على الأرض، يكون محلولًا في السموات» (متى١٦: ١٩).

لقد غُلِب المسيح من محبته وتحننه فبكى على لعازر، وبكى على أورشليم ورثاها، فيما عُرِف بـ"مرثية أورشليم"، وبكانا في جثسيماني وتحركت أحشاء الرأفة داخله من نحونا، وربما يفسر لنا ذلك لنا معنى: «اضطرب يسوع». مَثَّلها مَثَل البذل، والذي يُعرَف في الطب الشعبي بأنه خروج الدم حتى يخفّ الضغط الداخلي، فلكي يشعر الله بالراحة من جهتنا بكى ونزف العرق كقطرات الدم، بل نزف الدم بالفعل في الجلد وعلى الصليب، وبكى في جثسيماني. وهكذا عبّر الرب عن محبته هذا الأسبوع بأكثر من طريقة: تارة بالدموع وتارة بالعرق وتارة بالدم، « لأنَّهُ هكذا أحَبَّ اللهُ العالَمَ حتَّى بَذَلَ ابنَهُ الوَحيدَ، لكَيْ لا يَهلِكَ كُلُّ مَنْ يؤمِنُ بهِ، بل تكونُ لهُ الحياةُ الأبديَّةُ» (يوحنا٣: ١٦). وهذا هو موضوع حديثنا في المقال التالي.

هكذا أحبَّ اللهُ العالم

هذه الآية تُحسب دُرّةً ثمينة، وصفها البعض بأنها "إنجيل صغير"، وهي أكثر آية حفظها الكبار والصغار. وتأتي الآية ضمن حديث المسيح مع نيقوديموس، ولكن وبينما كان الحوار مستمرًّا بين الاثنين، لم نقرأ جوابًا لنيقوديموس لأنه انبهر بهذه الحقيقة فصمت، مما حدا بالبعض أن يظن أن حديث المسيح مع نيقوديموس قد انتهي عند الآية السابقة، وأن الآية (١٦) هي تعليق القديس يوحنا ذاته علي حديث المسيح مع نيقوديموس.

هذه الآية هي خُلاصة الإنجيل كله.. وخُلاصة عمل الله الخلاصي (لاحظ أن كلمة خلاص وخُلاصة من أصل واحد، إذًا: خُلاصة القول هو الخلاص الذي قدّمه المسيح).

والآية هنا مثل النهر الجاري؛ منبعه: «هكذا أَحَبَّ اللهُ العالَمَ»، ومجراه: «حتَّى بَذَلَ ابنَهُ الوَحيدَ»، ومصبّه: «لِكَيْ لا يَهلِكَ كُلُّ مَنْ يؤمِنُ بهِ، بل تكونُ لهُ الحياةُ الأبديَّةُ». كما تتجلّى فيها أبعاد محبة الله للبشر؛ فالعرض: «كُلُّ مَنْ يؤمِنُ بهِ» من العالم، والطول: «حتَّى بَذَلَ ابنَهُ

الوَحيدَ»، وعمقها: «لكَيْ لا يَهلِكَ كُلُّ مَنْ يؤمِنُ بهِ»، وارتفاعها: «بل تكونُ لهُ الحياةُ الأبديَّةُ»..

إنها أعظم آية... مفرداتها كالآتي: لأنه (عودة على فكرة رفع الحية في البرية)، هكذا: (خلاصة القول..)، أحب (أعظم قيمة)، الله (أعظم شخص)، العالم (أوسع شيء)، بَذَل (أعظم عمل)، يهلك (أعظم عقوبة)، يؤمن (أعظم استجابة)، حياة أبدية (أعظم مكافأة).

١ – هكذا:

تعني الخُلاصة.. مثل قولنا: "فلان ذاكر وأخد دروس والتزم البيت وكان أمينًا، وهكذا نجح"!! أو "فلان اعتاد السرقة، وتعرّض لمتاعب، ودخل في مشاكل، وقُبِض عليه وحوكم، وهكذا سُجِن"!!. ويري البعض أنها تعني أيضًا: "بهذا المقدار"، كما تعني أيضًا: "بلا سبب"، أو بالعامية: "هو كدا..!"، وقد تعني: "بلا استحقاق لنا"، أو "بلا مقابل"... لأن الله محبة بلا سبب وبلا مقابل أو شروط، بل محبة بالرغم من! لقد بكى الله على أورشليم من فرط حبّه لها (لوقا١٩: ٤١–٤٤).

٢ – أحبّ الله..

لم يسمع الناس في العهد القديم أن الله أحبّ أو محبّ، وإنما أن الله عادل، ومنتقم، ومفتقد ذنوب الآباء في الأبناء، وحتي الفكرة الباهته التي كانت عن حب الله، سنجدها مغلَّفة بالعظمة والبهاء والخوف، لم يكونوا

يقتربون إلى الله بل يتقرّبون إليه! (يخشـــونه ويتودّدون إليه): «لأن الربَّ عالٍ ومخوفٌ... هو متعالٍ جدًا» (مزمور٤٧: ٢، ٩)، «حَقًّا أنتَ إلهٌ مُحتَجِبٌ يا إلهَ إسرائيلَ المُخَلِّصَ» (إشعياء٤٥: ١٥)، وأقصـي ما تمنّاه الشـعب من الله هو أن يترأف ويطيل أناته (مزمور١١٣: ٨، ١٣)؛ ولكنه هنا يعلن حبه بالصـــليب. ولكن لماذا أحبّنا الله؟ الحقيقة أنه لا يوجد جواب شـــافٍ لهذا السـؤال سـوى أن الله محبة! فلم يحبنا لأجل خير قدمناه، أو خير سـنقدمه، ولكنه مجانًا أحبّنا.

٣ – الله..

هو أعظم شـــخص، وأعظم كائن، وهو الكائن والذي كان والذي يأتي، أزلي أبدي، ســـرمدي، مالئ الكل، لا يخلو منه مكان، غير محدود وغير متناهي، ولا يمكن إدراك أعماقه ولا يمكن اسـتقصـــاء فكره وطرقه، إنه يعلن للإنســـان ما يود فقط أن يعرّفه إيّاه، له الســـرائر ولنا نحن المُعلَنات، فيه جميع الكمالات والصـــفات المطلقة، هو المحبة والأكبر والأقدس والأكمل، هو ضابط الكل ومدبر المسكونة وإله الآلهة ورب الأرباب وملك الملوك.

٤ – العالم..

يشـــير العالم في إنجيل القديس يوحنا إلى الأشـــرار والســـاقطين والذين رفضـوا الله، وظهر الشـيطان كرئيس لهذا العالم: «والعالم لا يسـتطيع أن يقبل

روح الحق» (يوحنا١٤:١٧).. وفي رسائله يقول: «لا تحبوا العالم» (يوحنا الأولى٢:١٥). كما كانت الأمم مرفوضة من اليهود ومُعتَبَرة لديهم أنها "كلاب"!!.

وللعالم معانٍ كثيرة في الإنجيل منها شهوات العالم، والعالم بمعنى البشر، والعالم بمعنى العالم المادي "كوزموس"، والعالم بمعنى الحياة الحاضرة، أو الحياة الآتية، ولكن العالم المقصود هنا هو البشر (رومي)، كل البشر في جميع العصور.. نعم إن الله يحبه منذ الأزل ولكنه هنا يعبِّر عن محبته له ببذل الابن الوحيد.

٥ – حتى بذل...

حتى: تفيد نهاية المطاف (سرتُ حتى وصلتُ... سهرتُ حتى الصباح.. أكلتُ حتى شبعت.. الخ)، وبَذَلَ: من البذل، إن أعظم دليل لمحبة الله هو الصليب حيث بذل ذاته. يمكن لشخص أن يحب بالكلام اللطيف.. بالعطف... ربما بالعرق أو الدموع... أو ببعض الجهد... أو المال... أو الهدايا، ولكن أن يموت عمن يحبه فهذا هو العجيب، والأعجب أن يموت البار عن الشرير، فإنه يمكن لشرير أن يموت عن بار بالمال، وشرير عن شرير (كما يحدث مع بعض تجار المخدرات)، أو بار عن بار (مثلما تموت أم عن ابنها)، ولكن المسيح وهو بار بل والبرّ نفسه، مات عنا نحن الأشرار: «فإِنَّهُ بالجَهدِ يَموتُ أَحَدٌ لأجلِ بارٍّ. رُبَّما لأجلِ الصّالِحِ

يَجسُرُ أَحَدٌ أيضًا أنْ يَموتَ. ولكن اللهَ بَيَّنَ مَحَبَّتَهُ لنا، لأنَّهُ ونَحنُ بَعدُ خُطاةٌ ماتَ المَسيحُ لأجلِنا» (رومية٥:٧،٨).

وتُستَخدَم لفظة "بذل" أيضًا للتعبير عن تفريغ الضغط (سواء ضغط ماء أو دم)، فقد تجّمعت عوامل المحبة الإلهية في قلب الله، فاضطرمت أحشاؤه، وكان المنفذ لهذا الضغط في البذل... واستراح الله عندما بذل ابنه الوحيد.

٦ – ابنه الوحيد:

الوحيد هنا لا تعني الوحيد عددًا (مثل أب أنجب طفلًا وحيدًا.. أو ابنًا مع مجموعة من البنات!!!)، ولكن الوحيد هنا هو: "الوحيد الجنس" أي الفريد من نوعه، له مواصفات لا توجد في غيره "أومونوجينيس" أي الذي لا يوجد غيره مولودًا بنفس الجوهر الإلهي. هذا ويصوِّر البعض الله الآب غاضبًا ثائرًا، بينما المسيح المحب هو الذي خفّف حدة غضبه! ولكن الله الآب المحب هنا يبذل الابن الوحيد المحبوب عن حياة العالم (لذلك يجب ألّا نصف الأقنوم الثاني الكلمة المتجسد بـ"الابن الوحيد" فقط، وإنما "الابن الوحيد الجنس = بي مونوجينيس").

٧ – لكي لا يهلك كل من يؤمن به:

مات المسيح عن العالم كله.. بجميع طوائفه، ولكن الذي لن يهلك هو الذي يؤمن به، وليس كل من مات عنه المسيح، إذًا هناك فرق بين «كل»

من مات عنه، و«كل» من يؤمن به... كل من يقبل، لأن الخلاص يشترط «كل» من يؤمن.

يَهلِك: وليس يُهلِك، لأن الله لا يُهلك أحدًا، ولكن الإنسان يُهلِك ذاته بنفسه، فالله يريد أن جميع الناس يخلصون.. الله غير مسئول عن هلاك البشر. *so that everyone who believes in him may not perish*: «ولكنكَ مِنْ أجلِ قَساوَتِكَ وقَلبِكَ غَيرِ التّائبِ، تذخَرُ لنَفسِكَ غَضَبًا في يومِ الغَضَبِ» (رومية ٢:٥). والهلاك نوعان: هلاكٌ هنا بالبعد عن الله، وهلاكٌ هناك بالنار الأبدية (أو تكريس للهلاك).. «الذي يؤمن به لا يُدان، والذي لا يؤمن قد دِين» (يوحنا ٣: ١٨).

٨ – بل تكون له الحياة الأبدية:

الحياة الأبدية هي أعظم مكافأة، ولكنها تبدأ هنا، هذه المكافأة هي معيّة الله والقديسين. الجميل أن هناك فرقًا بين تعبير "يحيا إلى الأبد" وتعبير "تكون له الحياة الأبدية"، مثل شخص يزور حديقة أو شخص يمتلك الحديقة أو يسكن فيها.. إن "الحياة الأبدية" هي الجعالة التي نجري لأجلها.. في ميدان السباق.

الشعانين والصليب

والجُموعُ الّـذينَ تقَـدَّموا والّـذينَ تبِعوا كـانوا يَصرُخونَ قائلينَ: «أوصَنّا لابنِ داوُدَ! مُبارَكٌ الآتي باسمِ الرَّبِّ! أوصَنّا في الأعالي!» (متى٢١: ٩).

العيـدان لهمـا ذات الطقس وذات البهجـة، فـاللحن المشـــترَك في المناســبتين هو ما يُقال في اســتقبال الملوك، ومن ثَمّ يُســتخدم الآن في استقبال البطاركة والأساقفة "لحن إفلوجيمينوس"، كما يرتبط العيدان بالتلويح بالأغصـان والسعف، كما تُصنع الصلبان وبعض المشغولات من الخوص في العيدين، وفي الشـعانين نحتفل بدخول المسـيح الانتصـاري كملك اتخذ من الحمار عرشًـــا له، وعلى الصـــليب يجلس الملك «الرب قد ملك على خشبة»، ونرتّل له: «عرشك ياالله إلى دهر الدهور». وبينما استخدم الرب كلًا من الجحش والأتان في دخوله أورشـــليم (وهما يشـــيران إلى اليهود والأمم)، هكذا قدّم المسيح ذبيحته بواسطة الاثنين (اليهود والرومان)، ولأجل الاثنين أيضًـــا؛ وهكذا يمكننا أن نعتبر أن الفعل المحوري هو الخلاص، ومن ثَمّ فاللفظة المحورية هي «هوشعنا» أي خلِّصنا، كما أن اللحن العظيم

الذي يُقال والمسيح مُعلَّق على الصليب (أومونوجينيس) ينتهي بـــ"خلصنا.. ارحمنا".

وتعود مظاهر البهجة في هذه الأعياد إلى الاحتفالات اليهودية بعيد المظال، ولاســـيما في اليوم الثامن للعيد، حيث كانت ترتفع الأغصـــان والســـعف وثمار الأترج، كما كان يرافق هذا الطقس ســـكب الماء، وكان يتميّز ببهجة كبيرة. وفي الأخبار الأولى عن الليتورچيا في أورشـــليم، يرد في مذكرات السائحة إيجيريا أن المسيحيين كانوا يسيرون في موكب مهيب مفرح من كنيسة الجلجثة يحملون الأغصان مهلِّلين: «أوصنّا»، كما أصبح عيد الصـــليب لاحقًا من أفخم وأبهج الأعياد في الإمبراطورية الرومانية بعد العثور على خشبة الصـليب المقدسـة، وكان يُحتفل به ثلاثة أيام. ويُلاحَظ أن الدورة التي تُقام في العيدين كانت واحدة، وكانت تتم في المدينة كلها، ثم انحسرت داخل الأديرة، وأخيرًا داخل الكنيسة فقط.

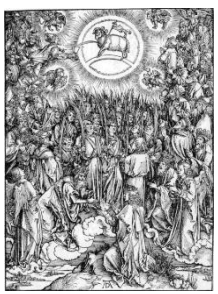

أتان وجحش ابن أتان:
الربُّ محتاج إليهما

«قُولُوا لابْنَةِ صِهْيَوْنَ: هُوَذَا مَلِكُكِ يَأْتِيكِ وَدِيعًا، رَاكِبًا عَلَى أَتَانٍ وَجَحْشٍ ابْنِ أَتَانٍ» (متى ٢١: ٥؛ زكريا ٩: ٩)

«هُوَذَا الرَّبُّ قَدْ أَخْبَرَ إِلَى أَقْصَى الأَرْضِ، قُولُوا لابْنَةِ صِهْيَوْنَ: "هُوَذَا مُخَلِّصُكِ آتٍ. هَا أُجْرَتُهُ مَعَهُ وَجِزَاؤُهُ أَمَامَهُ"» (إشعياء ٦٢: ١١)

هذه هي المرة الأولى التي يُذكر فيها إن السيد المسيح قد "ركب"، فقد ورد في البشائر أنه "مشى" وكان يمشي عند بحر الجليل، ويوحنا المعمدان رآه ماشيًا، ومع تلميذي عمواس مشى، وحتى في البحر رآه التلاميذ مرارًا ماشيًا على الماء! لقد قطع عند دخوله الانتصاري إلى أورشليم مسافة خمسة وعشرين كيلومترًا من أريحا إلى بيت عنيا وبيت فاجي سيرًا على الأقدام (متى ٢٠: ٢٩-٢١: ١؛ ومرقس ١٠: ٤٦-١١: ١).

لماذا حيوانان اثنان؟

ذكرت الأناجيل الأربعة قصة استخدام الرب يسوع لجحش وأتان في دخوله هذا، وبينما ذُكِرت القصة بالكامل في إنجيل القديس متى، فقد ذكر

البشيرون الثلاثة الآخرون جوانب منها فقط، وعلى سبيل المثال ذكر معلمنا متى الحيوانين معًا بينما ذكروا هم "الجحش" فقط. وتأتي فكرة استخدام الاثنين بسبب تضاريس الأرض أو طبوغرافية الرحلة، حيث يرتفع الطريق باتجاه الغرب حوالي ٩٠٠ متر، بينما ترتفع الربوة التي عليها الهيكل حوالي ٨٠ مترًا، ومن هنا فالأتان يمكنها تحمل وعورة الطريق بينما الجحش يناسبه الطرق السهلة. ويرى الآباء رمزيًا أن الأتان تشير إلى الأمّة اليهودية بينما يشير الجحش إلى الأمم، وبينما تأدّب اليهود بالناموس كان الأمم جامحين، ويُعَدّ الحمار بشكل عام مع تنوّع جنسه واختلاف عمره حيوانًا نجسًا بحسب الشريعة، كما يُعَدّ من أغبى الحيوانات الحاملة، ولعل الفرق بين الحيوانين هنا أن الأتان (أنثى الحمار) – وهي اليهود – قد تمرّست وتمرّنت، بينما الجحش بلا مران سابق ولا خبرات روحية.

أمّا عن العلاقة هنا فهي علاقة التشابه في بعض جوانب فقط وليس التطابق، مثلما نصف شخصًا بأنه أسد فنقصد صفة الشجاعة، وآخر بالحَمَل فنقصد صفة الوداعة، بل لقد لُقِّب الرب نفسه بمثل هذه الصفات، بل وأكثر من هذا، فالأسد الذي شُبِّه به المسيح (الخارج من سبط يهوذا – رؤيا٥:٥) لُقِّب به الشيطان أيضًا (بطرس الأولى٥:٨)!!

ولأن متى الرسول كتب لليهود فقد ذكر الأتان مع الجحش مذكّرًا إياهم بالنبوة: «فَكَانَ هذَا كُلُّهُ لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِالنَّبِيِّ الْقَائِلِ: "قُولُوا لابْنَةِ صِهْيَوْنَ:هُوَذَا مَلِكُكِ يَأْتِيكِ وَدِيعًا، رَاكِبًا عَلَى أَتَانٍ وَجَحْشٍ ابْنِ أَتَانٍ"»

(متى٢١: ٤،٥)، وأما الثلاثة الآخرون فقد ذكروا "الجحش" فقط لأنهم كتبوا للأمم في إشارة إلى قبولهم في الايمان. لذلك يرى القديس يوحنا ذهبي الفم أن الرب بركوبه على جحش يُتمِّم نبوَّتين: الأولى نبوَّة زكريا: «هُوَذَا مَلِكُكِ يَأْتِي إِلَيْكِ... وَرَاكِبٌ عَلَى حِمَارٍ وَعَلَى جَحْشٍ ابْنِ أَتَانٍ» (زكريا٩: ٩)، والثانية: التي أخبر فيها أنبياءه بدعوة الأمم غير الطاهرين، وأنهم سيأتون إليه ويتبعونه، وأنه سيجد راحته فيهم.

هذا ويشير الجحش إلى الشعب الجديد الذي كان قبلًا نجسًا، ولكنه صار طاهرًا بمجرّد أن ارتاح الرب يسوع عليه، وكما أن التلاميذ هم الذين حلُّوا الدابّتين، هكذا بواسطة التلاميذ أيضًا دُعينا نحن (الأمم) وهم (اليهود) إلى الإيمان، وبواسطة الرسل جيء بنا كلينا إلى الرب يسوع. وبسبب أن دعوتنا قد جعلت اليهود يغارون، هكذا وُجدت الأتان تابعة للجحش، لأنه بعد أن أُجلِسَ المسيح على قلوب الأُمم سيأتي اليهود أيضًا مدفوعين بالغيرة، وهو ما قاله بولس الرسول: «... أَنَّ الْقَسَاوَةَ قَدْ حَصَلَتْ جُزْئِيًّا لإِسْرَائِيلَ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ مِلْؤُ الأُمَمِ، وَهكَذَا سَيَخْلُصُ جَمِيعُ إِسْرَائِيلَ» (رومية١١: ٢٥،٢٦). وواضح أن هذه نبوَّة عن دخول الأمم وغيرة اليهود، وإلاَّ لما كان زكريا النبي اهتم بأن يذكر "أتانًا وجحشًا ابن أتان".

درس الاتضاع:

دخل الرب ليس كقائد عسكري يمتطي صهوة جواده، شاهرًا سيفه دافعًا قدّامه الأسرى والغنائم، ولا جالسًا في عظمة داخل مركبته الملوكية وحوله

القادة، كما لم يكن لإثارة الحماس السياسي، وإنما كملك محبوب بسيط يملك على القلوب بالبرّ والأبوة، ومن هنا جاء ردّ فعل الشعب كانفجار فرح لأناس بسطاء، وقد دخل لينشر السلام، بل وليعلن أنه المخلّص الذي لن يخلِّص شعبه بالقتل، وإنما بتقديم نفسه للموت عنهم، فهل سمعتم عن ملك يقبل الموت عن أعدائه: «وَأَقْطَعُ الْمَرْكَبَةَ مِنْ أَفْرَايِمَ وَالْفَرَسَ مِنْ أورشليم وَتُقْطَعُ قَوْسُ الْحَرْبِ. وَيَتَكَلَّمُ بِالسَّلاَمِ لِلأُمَمِ، وَسُلْطَانُهُ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْبَحْرِ، وَمِنَ النَّهْرِ إِلَى أَقَاصِي الأَرْضِ. وَأَنْتِ أَيْضًا فَإِنِّي بِدَمِ عَهْدِكِ قَدْ أَطْلَقْتُ أَسْرَاكِ مِنَ الْجُبِّ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ مَاءٌ. ارْجِعُوا إِلَى الْحِصْنِ يَا أَسْرَى الرَّجَاءِ» (زكريا٩: ١٠-١٢).

إن مشهد يسوع راكب على الحمار يعيد إلينا صورًا من العهد القديم لبعض الملوك الذين بايعهم الشعب ليكونوا ملوكًا عليهم، حيث الأبواق والخوص وأغصان الزيتون مع الهتاف: "قد ملك فلان..": «إِذَا سَمِعْتُمْ صَوْتَ الْبُوقِ، فَقُولُوا: قَدْ مَلَكَ أَبْشَالُومُ فِي حَبْرُون» (صموئيل الثاني١٥: ١٠).

كيف هزأ البعض من الموكب؟

كان الرومان يهزأون باليهود في أيّ أمر متعلّق بالحمار، ويرد في قصص اليهود أن سابور أراد أن يعطيهم حصانًا ليُركِبوا عليه المسيّا الخاصّ بهم، ولكنهم احتجّوا بأن أفضل خيله لا يساوي الحمار الذي

سيركبه المسيّا، لأنه من سلالة الحمار الذي ركبه إبراهيم عند تقديم ابنه إسحق ذبيحة، وهي نفس سلالة الحمار الذي ركبه موسى! كما أن يوسيفوس عندما رأى أن القُرّاء من الأمم يسخرون من الحمار، استبدله بـ"الحيوان" أو "الحصان"، ولذلك يركّز القديس متى على ذكر الأتان مع الجحش ليؤكّد أنه ليس نوع آخر من الحيوانات.

الرب محتاج!!:

إن التلميذين بحسب بعض الشُرّاح هما بطرس (وذلك بسبب الوصف الدقيق للقديس مرقس والذي اعتمد في كتابة إنجيله على مذكّرات بطرس)، والآخر ويوحنا، عندما طلبا الحيوانين وافق صاحبهما بأن يأخذاهما فور علمه بـ"احتياج الرب لهما"، ونحن؛ كم يكون فرحنا وسخاؤنا عندما نعلم أن الرب في احتياج لبعض ما يخصّنا، انظروا كذلك اتضاع الرب عندما يقول إنه في احتياج إلى البشر بينما هو المالك لكل شيء، هذا يحدث كثيرًا عندما تطلب الكنيسة من شخص ما قائلة: الرب محتاج إلى هذه الأرض أو ذاك البيت أو هذا المال، فيرد ذلك التقي قائلًا: إن كل ما هو لي هو للرب: «فقالَ أرونَةُ لداوُدَ: فليأخُذهُ سيّدي المَلِكُ ويُصعِدْ ما يَحسُنُ في عَينَيهِ. أُنظُرْ. البَقَرُ للمُحرَقَةِ، والنَّوارِجُ وأدَواتُ البَقَرِ حَطَبًا» (٢صموئيل ٢٤: ٢٢).

مَرثيَّة أورشليم

وفيما هو يَقتَرِبُ نَظَرَ إلَى المدينةِ وبَكَى علَيها قائلًا: «إنَّكِ لو عَلِمتِ أنتِ أيضًا، حتَّى في يومِكِ هذا، ما هو لسَلامِكِ! ولكن الآنَ قد أُخفيَ عن عَينَيكِ. فإنَّهُ ستأتي أيّامٌ ويُحيطُ بكِ أعداؤُكِ بمِترَسَةٍ، ويُحدِقونَ بكِ ويُحاصِرونَكِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، ويَهدِمونَكِ وبَنيكِ فيكِ، ولا يترُكونَ فيكِ حَجَرًا علَى حَجَرٍ، لأنَّكِ لَمْ تعرِفي زَمانَ افتِقادِكِ» (لوقا ١٩: ٤١-٤٤).

«يا أورشليم، يا أورشليم! يا قاتِلَةَ الأنبياءِ وراجِمَةَ المُرسَلينَ إليها، كمْ مَرَّةٍ أرَدتُ أنْ أجمَعَ أولادَكِ كما تجمَعُ الدَّجاجَةُ فِراخَها تحتَ جَناحَيها، ولَمْ تُريدوا! هوذا بَيتُكُمْ يُترَكُ لكُمْ خَرابًا. لأنّي أقولُ لكُمْ: إنَّكُمْ لا تَرَوْنَني مِنَ الآنَ حتَّى تقولوا: مُبارَكٌ الآتي باسمِ الرَّبِّ!» (مت٢٣: ٣٧-٣٩).

مدينة السلام، مدينة الملك العظيم، مدينة داود الحقيقي، موضع الهيكل، مركز الجاذبية لجميع يهود العالم... كانت أورشليم أعظم مدينة، وهيكلها أعظم هيكل، وأعظم خزانة مال ونفائس في العالم كله. كان منظرها

كقطعة من الثلج عندما تشــرق الشــمس عليها، وكان الملوك يتودّدون إليها وإلى هيكلها بالهدايا الثمينة، كانت محطّ أنظار العالم، ولما أشـــار تلاميذه الجليليون البســـطاء إلى حجارتها بفخر أجاب الرب بمرارة بأنه لن يُترَك حجر على حجر فيها إلاّ ويُنقَض.

ولكن ها هي أورشـــليم تفعل ما لم تفعله ســـدوم، تضـــطهد الأنبياء وتقتلهم، وترفض الخالق والذي جاء ليطلب ويخلص ما قد هلك، عندما أراد التلاميذ أن يثنوه عن الذهاب إليها أجابهم بأنه لا يمكن أن يهلك نبي خارج أورشـــليم (لوقا ١٣:٣٣)... كيف يبكيها ويرثيها وهي التي رفضـــته؟! كيف ينسبها لنفسه فيرفضون هذه النسبة ويطردونه منها ويسلمونه للقتل؟!

أورشليم التي يبكيها، هم سكان أورشليم وقادة أورشليم ومباني وشوارع أورشـــليم، والحقيقة أن القائمين عليها أســـاءوا إلى كل هؤلاء: إلى أولادهم ومبانيهم وســـمعة البلاد، وحتى هيكل الرب هناك، فهوذا المســـيح الرب.. رب الهيكل.. يغادر هيكل الرب، بعد أن يطهره من الرجاســـات وينهي الكهنوت اليهودي ليحوله إلى الكنيســـة ظلّ الســـماويات. وهنا يرثيها: «أورشليم أورشليم...» حيث تظهر رنّة الحزن في صوته، وتخرج الكلمات بطعم أحشـــاء الرأفة والتحنُّن. يقولها وغُصّـــة في حلقه، تمامًا كما يفعل كل أب وكل أم مع الابن العاصي، الذي لا يقدّر كمّ حب الوالدين له.

في هذا الأسبوع نجد الرب يبكي أورشليم ويبكي في بستان جثسيماني، ويتحول عرقه إلى قطرات من الدم في هذا البســـتان، ثم ينزف دمًا على

الصـــليب، تتحرك أحشـــاء الرأفة فيه في أغلى تعبير عن مشـــاعر الأمومة والأبوة الحقيقية، مهما كان موقف الإبن العاصـــي، تصـــوروا أن ابًا قرر أن يموت مكان ابنه فإذا بالابن العاق يشـيّع أباه بالسـبّ والتعيير والسـخرية إلى مكان قتله!!

هذه الأمومة الحانية التي اتخذت شـــكل الدجاجة التي تفرد جناحيها لتوفر الحماية والأمان لفراخها (وهو تعبير شـــائع يُســـتخدم في مثل هذه الحـالات)، تبذل محـاولات عديدة لجمع الأبنـاء إلى واحد ولكنهم لم يريـدوا، ويشير الرب هنا إلى أنه لا يستخدم إرادته وحده لتخليص الشخص، والدليل أنـه يغـادر المدينـة بمن فيهـا بـدلًا من أن يفرض على الكل الدخول تحت الجناحين.

أورشـليم هذه وصـلت لدرجة خطيرة من القسـوة حتى أصـبحت لا تطيق رجال الله. والمســـيح أعلى من الأنبياء، ولكنه يقول نبي إشـــارة لكل رجال الله. لقد قتلت أورشـــليم الكثير من الأنبياء، واضـــطهدت الباقين. مع كل قسـوة أورشـليم، فالمسـيح في محبته أتى ليموت عن أورشـليم. إذًا المعنى أن أغلب الأنبياء قتلهم أهل أورشـليم القسـاة القلوب وهذا ما سـيعملونه بي. فقد قدم الرب ذبيحة نفسـه في أورشـليم أيضًـا، وهذا يفسـر لنا لماذا لم يرد الرب أن يقتله اليهود قبل ذلك ليس فقط لأنه يريد أن يموت مصـلوبًا وإنما ليموت في أورشليم أيضًا.

ويرثيها ويرثي لها فقد حاول مرارًا كثيرًا أن يجمع أولادها ليحميهم ويخبئهم من الشر «في ظِلِّ القديرِ يَبيتُ» (مزمور ١:٩١)، ولكنهم لم يريدوا، ولم تكن إرادة الرب كافية لخلاصهم بل كان لابد أن تتحد الإرادتان معًا ليخلص الإنسان. فالله يريد أن الجميع يخلصون (١تيموثاوس٢: ٤).

إنه يشبه الأم، وهو بحقٍّ ينسب هنا صفات الأم إلى نفسه، بل يجمع صفات الأب والأم معًا، الأم التي لا تزال تبكي ابنها الذي يرفض النصح ويصرّ على الرفض والمخالفة، قلبها يتمزق لأجله، وهذا ما حدث مع المسيح في جثيسماني إذ نزل عرقه كقطرات الدم، حزنًا وألمًا على الذين رفضوه: « الّذي – في أيّامِ جَسَدِهِ – إذ قَدَّمَ بصُراخٍ شَديدٍ ودُموعٍ طَلِباتٍ...» (عبرانيين ٥:٧).

وتستمر الأم في النواح والعويل لأجل ابنها، وأمّا الرب هنا وهو عالم بما سيأتي على أورشليم فهو يرثيها كمن عوقبت بالفعل، فقد تنهد أولا قائلًا: «إنَّكِ لو عَلِمتِ أنتِ أيضًا، حتَّى في يومِكِ هذا، ما هو لسَلامِكِ! ولكن الآنَ قد أُخفيَ عن عَينَيكِ» أي أنها ترفض السماع، فهي تنظر ولكنها لا تبصر، وتسمع ولكنها لا تفهم لئلا ترجع بقلبها فيشفيها الرب!!

إنه أسبوع الحب المتدفق، فيه يبكينا الرب ويعرق لأجلنا ثم يكلل ذلك بسفك دمه الثمين برضىً لأجل خلاصنا.

كيف يحتمل إنسان أو منزل أو كنيسة أو مدينة أن يصدر هذا الحكم القاسي عليها، وممّن؟ من الرب الديان العادل الحق! لقد كان بيته وبيت أبيه، بيت الصلاة والبر والذبائح، ولكنه ما أن تحول إلى بيت تجارة وبيت لصوص، حتى دُعِي بحقٍّ بيتهم هم وليس بيته هو، لم يخربه هو كلا وإنما هم الذين حولوه خرابًا فلم يعد أهلًا لسكناه، ولم يعد لائقًا به أن تُقدَّم فيه الذبائح، لقد غادره لتحلّ محله الكنيسة ظلّ السماويات.

إيّاك أن تجعل الله يقول: «هوذا بيتكم يُترك لكم خرابًا»، بل ليقل: «هذا هو موضع راحتي، ههنا أسكن لأني أحببته».

خراب أورشليم

«ومَتَى رأيتُمْ أورُشَـــليمَ مُحاطَةً بجُيوشٍ، فحينَئذٍ اعلَموا أنَّهُ قد اقتَرَبَ خَرابُها. حينَئذٍ ليَهرُبِ الّذينَ في اليَهوديَّةِ إلَى الجِبالِ، والّذينَ في وسطِها فليَفِرّوا خارِجًا، والّذينَ في الكوَرِ فلا يَدخُلوها، لأنَّ هذِهِ أيّامُ انتِقامٍ، ليَتِمَّ كُلُّ ما هو مَكتوبٌ.»(لوقا٢١: ٢٠-٢٢).

لم تُذكَر في التاريخ رواية تذخر بدمار وفظائع وبؤس وجرائم قتل ومجاعات وأوبئة في وقت واحد، وبشكل لا يمكن وصفة بما يتناسب مع الواقع، مثل مأساة أورشليم وهيكلها، فقد تمت نبوءة السيد المسيح عنها بشكل قاطع، ويقول يوسيفوس المؤرخ اليهودي[١] أنه لا يمكن تعليل ما حدث في أورشليم والهيكل إلّا بأن الله حتم خراب هذه المدينة الرجسة وأنه

---

[١] هو يوسف بن كربون الذي كُلِّف قيادة قسم من الجيش لحماية الجليل الأعلى ضد جيوش الرومانية ٦٨م، ولكن بعد حصار ٤٧ يومًا سقطت حصون المدينة، وقتل الرومان أربعين ألفًا من اليهود. أمّا يوسيفيوس فقد هرب مع أربعين آخرين واتفقوا على أن يقتلوا بالقرعة حتى لا يسقطوا في أيدي الرومان، وقد تبقي يوسيفوس في النهاية مع شخص آخر واتفقا علي تسليم نفسيهما للرومان. ومن هنا فقد وقف يوسيفوس على دقائق هذه الحرب وكان شاهد عيان، ولذلك فهو أدق مرجع فيما يخص تاريخ اليهود وحروبهم، واسمه يوسف فلافيوس، وُلِد في ٣٧ ق.م ومات في سنة ١٠٠م، ترك مجلدين أحدهما حروب اليهود، والثاني (العاديات اليهودية) وهو تاريخ عام من بدء الخلقة حتى سنة ٦٩م مع ترجمة حياته.

كان يريد أن ينقض هيكله، فقد سمح بهلاك كل من في المدينة بمن فيهم أولئك الذين ارتدوا الملابس المقدسة وترأّسوا الصلوات العامة ونُظِرَ إليهم باحترام من سكان الأرض جميعًا، لقد طُرِحوا عراة وصاروا مأكلًا للكلاب وطعامًا للوحوش، وهكذا لم يحدث أن غاص جيل شرير ومدينة متمردة في البؤس منذ إنشاء العالم مثلما غاص هذا الجيل وتلك المدينة.

المدينة البهية المأسوف عليها:

كانت أورشليم في ذلك الوقت في أبهى صورها، كما كان الهيكل بحق مفخرة بين جميع هياكل الآلهة في شتّى أنحاء العالم، حتى لقد عُدَّ عجيبة ثامنة بعد العجائب السبع الشهيرة. فمن الأحجار العظيمة والتحف الفخمة إلى الأبواب العملاقة التسعة المطعمة بالذهب، بينما تفوقها جميعًا البوابة التاسعة العملاقة ذات الأعمدة الكورنثية الضخمة المصبوبة من النحاس الخالص، ثم الأبراج الشامخة الجميلة والقطع الرخامية المنحوتة بطول أربعين ذراعًا وارتفاع عشرة أذرع، والإيوانات بأعمدتها الفخمة، والنقوش المبالغ فيها في النحت والفُسيفساء، ثم المربّعات الرخامية البيضاء والحمراء المُنمّقة والتي تُشبه أمواج البحر، وكذلك العناقيد الضخمة من العنب والمصنوعة من الذهب (أو الرخام المُصفَّح بالذهب) والتي يصل حجم الواحد منها إلى حجم الرجل، تتعانق أوراقها الكبيرة بفخامة على الأبواب الذهبية. كذلك الأروقة البديعة، مثل رواق الأمم بفسيفسائه الثمينة وأعمدته العملاقة المصنوعة كلٍّ من حجر واحد، ناهيك

عن قدس الأقداس والذي كان يحلو للرابّيين أن يشبّهوه بأسد رابض، حيث كان برخامه الأبيض وسقوفه المُحلّاة بالذهب مثل جبل عظيم تتوّج الشمس الذهبية قمّته الثلجية،وقد استمرّت هدايا الملوك للهيكل حتى آخر زمانه، وربما كان آخر ما أُهدِي إليه منهم هو تلك السلسلة الذهبية التي أهداها له الملك أغريباس والتي منحه إيّاها الأمبراطور كاليجولا. يُضاف إلى ذلك الكميات الهائلة من الذهب والأحجار الكريمة التي تغشّي البناء نفسه. لقد استمر العمل فى الهيكل الأخير ستة وأربعين عامًا إبّان حكم هيرودس الكبير (يوحنا٢:٢٠)، والذى تفنّن في جعله آية في الجمال، وبالرغم من أن هيرودس كان قد مات سنة ٤ق.م. إلّا أن العمل في الهيكل كان ما يزال مستمرًا في أيام السيد المسيح، حتى جاء كلّه قطعة فنية رائعة تتلألأ في الشمس.

المسيح يتأسف على المدينة:

في كثير من الفخر والمباهاة أشار التلاميذ إلى الهيكل يرون السيد المسيح إيّاه «ثُمَّ خرجَ يَسوعُ ومَضَى مِنَ الهَيكلِ، فتقَدَّمَ تلاميذُهُ لكَيْ يُروهُ أبنيَةَ الهَيكلِ. فقالَ لهُمْ يَسوعُ: أما تنظُرونَ جميعَ هذِهِ؟ الحَقَّ أقولُ لكُمْ: إنَّهُ لا يُترَكُ ههنا حَجَرٌ علَى حَجَرٍ لا يُنقَضُ!» (متى٢٤:١،٢؛ راجع أيضًا مرقس١٣:١،٢؛ لوقا٢١:٥،٦)، وكان حجم الحجر الواحد ٤٠ ذراعًا×عشرة أذرع، وقد أمّن السيد المسيح على كلام تلاميذه بقوله «أما تنظُرونَ جميعَ هذِهِ؟»، غير أنه أردف بأسىً وربما بدموع، بأن جمال هذا الهيكل يكون

بإخلاص المتعبّدين فيه، قال ذلك ثم غادره، ويقول دكتور فرار: "إنه بذلك يكون الله قد فارق الهيكل، ويذكر يوسيفوس والمؤرخ تاكتيوس أنه إبان حصار أورشليم كان الناس يسمعون أصواتًا كأصوات الآلهة مفارقة المكان"، وهكذا وبعد أربعين سنه من ملاحظة السيد المسيح هذه أو أقلّ (حُكمه هذا) دُفِن الهيكل، ولم يستطع هارديان ولا جوليان ولا غيرهم أن يبنوا بديلًا له!

ولم تُبكِ المسيح آلام الجلد الذي مزق ظهره، ولا الشوك الذي أدمى رأسه، أوالمسامير التي اخترقت معصميه، بقدر ما آلمه ذلك الخراب الآتي على المدينة، «وفيما هو يَقتَرِبُ نَظَرَ إلَى المدينةِ وبَكَى علَيها قائلًا: "إنَّكِ لو عَلِمتِ أنتِ أيضًا، حتَّى في يومِكِ هذا، ما هو لسَلامِكِ! ولكن الآنَ قد أُخفيَ عن عَينَيكِ. فإنَّهُ ستأتي أيّامٌ ويُحيطُ بكِ أعداؤُكِ بمِترَسَةٍ، ويُحدِقونَ بكِ ويُحاصِرونَكِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، ويَهدِمونَكِ وبَنيكِ فيكِ، ولا يترُكونَ فيكِ حَجَرًا علَى حَجَرٍ، لأنَّكِ لَمْ تعرِفي زَمانَ افتِقادِكِ".» (لوقا١٩:٤١-٤٤). وكانت هذه هي آخر دعوة من مجد الله على جبل الزيتون قبل اختفاء بهائه (أي الشاكيناه)، ويقول الرابيون تعليقًا على ما ورد فى سفر حزقيال: «ثُمَّ رَفَعَتِ الكَروبيمُ أجنِحَتَها والبَكَراتِ معها، ومَجدُ إلهِ إسرائيلَ علَيها مِنْ فوقُ. وصَعِدَ مَجدُ الرَّبِّ مِنْ علَى وسطِ المدينةِ ووقَفَ علَى الجَبَلِ الّذي علَى شَرقيِّ المدينةِ» (حزقيال١١:٢٢،٢٣)، إن الشاكيناه استقرّت ثلاث سنوات على جبل الزيتون تدعو الناس للتوبة بلسان بشري وأخيرًا اختفت

إلى الأبد! وقد حدث نفس الأمر قبيل خراب الهيكل الأول (هيكل سليمان) حين تنبأ كل من النبيين إرميا وميخا عن ذلك فى آذان الشعب: «لكن اذهَبوا إِلَى مَوْضِعي الّذي في شيلوهَ الّذي أسكَنتُ فيهِ اسمي أَوَّلًا، وانظُروا ما صَنَعتُ بهِ مِنْ أجلِ شَرِّ شَعبي إسرائيلَ. والآنَ مِنْ أجلِ عَمَلِكُمْ هذِهِ الأعمالَ، يقولُ الرَّبُّ، وقَدْ كلَّمتُكُمْ مُبَكِّرًا ومُكلِّمًا فلَمْ تسمَعوا، ودَعَوْتُكُمْ فلَمْ تُجيبوا، أصنَعُ بالبَيتِ الّذي دُعيَ باسمي علَيهِ الّذي أنتُمْ مُتَّكِلونَ علَيهِ، وبالمَوْضِعِ الّذي أعطَيتُكُمْ وآباءَكُمْ إيّاهُ، كما صَنَعتُ بشيلوهَ. وأطرَحُكُمْ مِنْ أمامي كما طَرَحتُ كُلَّ إخوَتِكُمْ، كُلَّ نَسلِ أفرايِمَ. وأنتَ فلا تُصَلِّ لأجلِ هذا الشَّعبِ ولا ترفَعْ لأجلِهِمْ دُعاءً ولا صَلاةً، ولا تُلِحَّ علَيَّ لأنّي لا أسمَعُكَ» (إرميا٧:١٢-١٦؛ راجع أيضًا إرميا٢٦:١-١٩). وكما شفع إرميا في هذا الشعب (إرميا ٥)، ولم تُجدِ هذه الشفاعة بسبب عناد الشعب وتصلُّفهم، فقد شفع التلاميذ لدى السيد المسيح من أجل أورشليم والهيكل، ولكن الرب العارف بالقلوب وبما هو آتٍ، رأى الهلاك قادمًا من أجل قساوة الشعب.

علامات مبكّرة لخراب الهيكل:

لم يستجب اليهود لعتاب الله ولا لعقابه، لذا فقد أسلمهم إلى مضايقين يضايقونهم، وما أن يرجعوا إليه باكين حتى يرفع عنهم الضيق ويهبهم النصرة. كانت عبوديتهم القاسية للسلوقيين في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد قد جاءت نتيجة تركهم الرب ونسيانهم لما لاقوه على أيدي البابليين، إذ ما أن عادوا مع زربابل ليعيدوا بناء المدينه والهيكل، ثم

لإصـــلاح الأحوال الدينية والأخلاقية على يد عزرا ونحميا، حتى عادوا من جديد إلى التصـــلُّف والعناد! فلما صـــرخ الغيورون إلى الرب بقيادة العائلة الحشـــمونية (المكابيين) حتى أعاد الله لهم هيكلهم الذى دنســـه أنطيوخس إبيفانيوس، وحققوا العديد من الانتصـــارات، وقاموا بتطهير الهيكل واســـتعادة حريتهم وعباداتهم وذبائحهم، ثم ما لبث أن أســـاء خلفاؤهم إلى الشـــعب وإلى الهيكل وإلى الشـــريعة وطمع حكامهم في المراكز الدينية، ونشـــأت الفرق المختلفة المتناحرة لا سيما الصدوقيون والفريسيون.. ثم وصل شرهم وكبرياؤهم إلى ذروته حين رفضـــوا المســـيا وقاوموه، وانتهى المطاف بهم إلى ذبح مخلصـهم وبالتالي رفض خلاصـهم، فرفضـهم الله وأسلم الكرم إلى كرامين آخرين، قد أتوا من المشـــارق والمغارب ليتكئوا في حضـــن إبراهيم بينما طُرد بنو الملكوت (اليهود) إلى خارج.

ولقد كان لدمار الهيكل بدايات بعيدة تصـل إلى عشـرات السـنين، ففي سنة ٣٨م بدأ اضطهاد اليهود فى الإسكندرية في عهد الأمبراطور كاليجولا، وفى سنه ٤١/٤٠م حاول الأمبراطور جايوس *Gaius* إقامة تمثال ضـخم له في هيكل أورشـليم، وفي سـنة ٥٠م حدثت فتنة كبيرة ما بين اليهود وبعض الحكام الرومان قُتِل فيها ثلاثون ألف شـخص في أورشـليم فقط، وفي سـنة ٥٦م أضـــاف الملـك أغريبـاس ابن هيرودس جزءًا كبيرًا إلى القصـــر الحشموني القديم، حيث يمكن من خلاله الإشراف على منطقة الهيكل، وقد

ساء ذلك جدًا في نظر اليهود، فقاموا ببناء سور يحجب عن القصر رؤية الهيكل، وفي النزاع الذي قام نتيجة ذلك نجح اليهود في كسب تأييد نيرون، وفي سنة ٦٤م تمت عملية بناء أروقة الهيكل والتي كانت قد بدأت في ١٩ ق.م.

ولكن ضغط الرومان ازداد على اليهود، حتى انفجر غضبهم عن ثورة عارمة في سنة ٦٦م ضد ظلم حاكم اليهودية حينئذ "جسيوس فلوروس"، فأشعل الثوار النار في القصور ثم استولوا على برج أنطونيا وقتلوا حرّاسه، وعندئذ أسرع حاكم سوريا "سينوس جالوس" فجاء بجيشه وحاصر المدينه وحقّق بعض النصر، غير أن الرعب تملّكه عندما أراد الاستمرار فتراجع، مما شجع اليهود على مطاردته حتى بيت حورون.

ظهورات وعجائب غريبة تؤذِّن بالمغيب:

ذكر يوسيفوس عدة ظواهر حدثت قبل خراب أورشليم كان فيها نذير الخراب، وبينما فرح البسطاء والسُذَّج بتلك الظواهر، فسّرها العلماء والحكماء بشكل مختلف يبعث على القلق والتشاؤم، ومن هذه العلامات ما يلي:

+ ظهور كوكب عظيم ذي نور بهي كان يضيء الهيكل، وقد استمر ظهوره مدة سبعة أيام الفصح.

+ عندما كان الكهنة يطرحون بقرة على الأرض لذبحها قبل تقديمها ذبيحة، إذا بها تلد خروفًا! فاشمأزّ الجميع وأنكروا ذلك واعتبروه نذير شؤم.

+ فوجئ الجميع بأن البوابة الشرقية للهيكل، والتي تحتاج إلى عشرين رجلًا لفتحها، مفتوحة من تلقاء ذاتها في الصباح ولأيام عديدة.

+ ظهور وجه إنسان بهي الصورة، ساطع الضياء، في السماء وفوق الهيكل.

+ ظهور خيول من نار في السماء وعليها ركاب من نار أيضًا، وكانوا يطيرون بالقرب من الأرض، وكان جميع سكان أورشليم ويهوذا يرونها.

+ في ليلة البنطقستي (العنصرة) سمع الكهنة أصوات أناس كثيرين يتحركون جيئة وذهابًا في الهيكل وذلك دون أن يراهم أحد! وصوتًا عظيمًا يهتف قائلًا: "امضِ بنا حتى نرحل من هذا البيت قبل خراب القدس".

+ عُثِر على حجر قديم منقوش عليه: "إذا كمل بنيان الهيكل وصار مربعًا،عند ذلك يخرب"، فلما هدم تيطس برج أنطونيا الملاصق للهيكل والذي يقطع مربع الهيكل، كمل بذلك سور الهيكل، وعندئذ تذكروا ذلك، كما عثر اليهود على حجر بجانب حائط الهيكل مكتوبًا عليه: "إذا صار الهيكل مربعًا يأتي ملك غريب ويملك على أورشليم".

+ قبل خراب الهيكل بأربع سنوات ظهر شخص يُدعى "يسوع بن أنانوس"، يدّعي النبوة ويقول: "صوتٌ من الشرق، صوتٌ من الغرب، صوتٌ من أربع جهات العالم، صوتٌ على أورشليم، صوتٌ على الهيكل، صوتٌ على العروس، صوتٌ على جميع الناس الذين بأورشليم"، وكان

النـاس ينتهرونـه ويطردونـه، ويقول دكتور فرار إن الجلـد والتعـذيـب لم يسـتخلصـا منه كلمة أخرى سـوى "الويل لأورشـليم. الويل للمدينة. الويل للناس. الويل للمســكن المقدس!" وظل الرجل يردد هكذا في حزن وذهول حتى قُتِل بعد سـبع سـنين خلال الحصـار إذ أصـابه حجر منطلق من منجنيق، وصدى صوته يردّد هذه النبوة!!

بداية النهاية:

وخشـية تطور الأمر إلى أكثر من ذلك، قام الإمبراطور نيرون بتكليف رئيس جيوشـه فاسـباسـيان بالتصـدي لليهود، فقام على رأس جيش قوامه سـتون ألفًا من الجنود، فنزل إليها من جهة الشـمال حيث تقابل أولًا في الجليل مع جيش "يوسيفوس" فحاصر المدينة شهرًا ونصف قبل أن تسقط، وبالرغم من أنه قد قتل كثيرين من أهلها إلّا أن اليهود قتلوا الكثير من جنود الرومان أيضًا، وفى النهاية سلّم له يوسيفوس نفسه فأبقى عليه أسيرًا معه.

وبينما يواصـل فاسـبسـيان زحفه باتجاه أورشـليم إذا بأنباء عن موت نيرون والثورة التي قامت بخصـوص من يتولّى العرش، حيث رفض قواد الجيش شخصًا آخر حاول آخرون تجليسه إمبراطورًا، وأُستُدعِي فاسبسيان لتسـلم عرش روما، وبذلك تأجّل خراب أورشـليم لبعض الوقت، وقد سـلّم فاسـبسـيان قيادة الجيش إلى "تيطس" ابنه ليقوم بتأديب اليهود، وبينما كان تيطس يتقدم نحو أورشليم كان اليهود في المقابل يقوّون حصونهم ويحشدون

السلاح، وكان حول المدينة سورين فأقاموا سورًا ثالثًا. وكانت المدينة في ذلك الوقت في كامل بهائها، وكان موسم الفصح حيث يمعن اليهود في تجميل المدينة بسبب الحُجّاج والذين يصل عددهم إلى ثلاثة ملايين، ويزدهر اقتصاد المدينة ويكثر فيها الفرح والطرب والبيع والشراء، ومن غير المعروف إن كان تيطس قد قصد أن يبدأ الحصار على المدينة في يوم ١٤ نيسان وهو عيد الفصح وذروة الاحتفال به، أم لا، ولكن المدينة على أيّة حال قد أُغلِقت على هذا العدد الهائل من البشر، يُضاف إليهم كل من سمع بأنباء الحملة الرومانية فترك قراه ومدنه واحتمى في المدينة، وبالتحديد احتمى بالهيكل حيث كانوا يرون أنه لا يمكن أن يهلك كل من التجأ إليه لأن القدس نفسه لن يختفي.. ولكنهم لم يسمعوا لقول السيد المسيح وتحذيره عندما قال لتلاميذه «فمَتَى نَظَرتُمْ «رِجسَةَ الخَرابِ» الّتي قالَ عنها دانيآلُ النَّبيُّ قائمَةً في المَكانِ المُقَدَّسِ –ليَفهَمِ القارِئُ– فحينَئذٍ ليَهرُبِ الّذينَ في اليَهوديَّةِ إلَى الجِبالِ، والّذي علَى السَّطحِ فلا يَنزِلْ ليأخُذَ مِنْ بَيتِهِ شَيئًا، والّذي في الحَقلِ فلا يَرجِعْ إلَى ورائهِ ليأخُذَ ثيابَهُ. وويلٌ للحَبالَى والمُرضِعاتِ في تِلكَ الأيّامِ! وصَلّوا لكَيْ لا يكونَ هَرَبُكُمْ في شِتاءٍ ولا في سبتٍ، لأنَّهُ يكونُ حينَئذٍ ضيقٌ عظيمٌ لَمْ يَكُنْ مِثلُهُ منذُ ابتِداءِ العالَمِ إلَى الآنَ ولَنْ يكونَ» (متى٢٤:١٥–٢١). وهكذا بدأ الحصار في يوم ١٤نيسان، وانتهى في ٨ أيلول من نفس العام، أي أنه أستمر ١٣٤ يومًا.

وكان خراب أورشـــليم في أيام أغريباس بن أرســـطوبولس الذي قتله هيرودوس، أمّا رئيس الكهنة في ذلك الوقت فقد كان يُدعى "حناني".

الأحوال داخل المدينة:

أمّا المدينة المنكوبة فقد كان الخطر لها من الداخل، أشـــدّ هولًا من ضـــغط الرومان من الخارج، ولقد حاول تيطس مرارًا عديدة أن يجنّبهم ويجنّب نفســـه ويلات الحرب والدمار، ولكن القائمين على حراســـة المدينة والدفاع عنها أبوا ذلك، غير أنهم في المقابل كانوا يقتتلون في الداخل من أجل الصـــراع على الســـلطة، لدرجة أن رجال إحدى الفرق المدافعة كانوا يسـيرون في زي النسـاء وهم يخفون في طيّات ثيابهم سـيوفًا صـغيرة، ثم يندســـون بين الناس في الزحام ليفاجئوا الرجال من الأحزاب الأخرى بالقتل دون توقع، ممـا دفع الكثيرين إلى لبس الـدروع تحـت ثيـابهم. وفي الأيـام الأخيرة كان البعض يقذفون الكهنة بالســـهام من أعلى أبنية الهيكل، حتى امتلأت أفنية الهيكل بالجثث حول المذبح. هكذا يقول الرب: «أليس ذلكَ مَكنوزًا عِندي، مَختومًا علَيهِ في خَزائني؟ ليَ النَّقمَةُ والجَزاءُ. في وقتٍ تزِلُّ أقدامُهُمْ. إنَّ يومَ هَلاكِهِمْ قريبٌ والمُهَيّآتُ لهُمْ مُسرِعَةٌ» (تثنية٣٢: ٣٤،٣٥).

وأمّا أشـــهر المدافعين عن المدينة فهما يوحنا الجليلي وســـمعان (شمعون)، ويُطلق عليهما أيضًا اسم "الخوارج"، وقد كان لهما أكبر دور في هذه المأساة.

يوحنان الجليلي

هو شخص ماكر مثقف قوي الشخصية، غير أن ملكة الشر كانت غالبة عليه، وهو من سكان مدينة "كوشالة" وهرب منها إلى أورشليم، وانضم إليه كثيرون في مثل شره، فتسلط على أورشليم وضايق أشرافها وكهنتها، فتحكم في وظائف الكهنة ورواتبهم، بل عزل رئيس الكهنة وعيّن آخر مكانه غير كفء لذلك، ثم تحصّن مع رجاله في القدس.

سمعان (شمعون):

وهو شخص شرير ظالم سافك للدماء، طرده رئيس الكهنة بسبب شروره، فاجتمع إليه خارج أورشليم عشرون ألفًا من اللصوص وقطاع الطرق، وراحوا ينهبون الضياع ويقتلون كل من يقف في طريقهم، وهكذا كان سمعان بالخارج ينزل بالناس أشد الضرر بينما يوحنا من الداخل يشدّد قبضة الظلم، ثم عاد إلى أورشليم وتقابل مع يوحنا وجماعته ليتحدا دفاعًا عن أورشليم، ولكنهما كثيرًا ما كانا يختلفان ويقتتلان متى خفّ ضغط الرومان من الخارج.

وانضم إليهما ألعازر بن حناني رئيس الكهنة فأصبحوا ثلاثة خوارج فيما يشبه رؤساء العصابات (أو ما يُسمّى الآن الميلشيات). واتخذ سمعان المواضع العلوية، بينما يوحنا في المواضع السفلية، وأما العازر فقد تمركز

في الهيكل وحوله.. ولكن الحروب اتصلت بينهم! وبدلًا من أن يحموا الشعب ويصونوا المقدسات، إذا بهم يصيرون مصدر تعاسة الشعب والمدينة والأقداس، فانتشر في المدينة: القتل والحرائق والجوع والأوبئة بسبب تلك الحروب، هكذا قال الرب: «إنهُم أُمَّةٌ عَديمَةُ الرَّأيِ ولا بَصيرَةَ فيهِمْ. لو عَقَلوا لَفَطِنوا بهذِهِ وتأمَّلوا آخِرَتَهُمْ. ٣٠كيفَ يَطرُدُ واحِدٌ أَلفًا، ويَهزِمُ اثنانِ رَبوَةً، لولا أنَّ صَخرَهُمْ باعَهُمْ والرَّبَّ سلَّمَهُم؟» (تثنية ٣٢:٢٨،٢٩).

صدام اليهود مع الرومان:

حاول القائد تيطس مخاطبتهم بالصلح أولًا فلم يستجب له أحد، فلما اجتمع بجيشه مقابل المدينة، تصالح الخوارج بالداخل وحاربوا تيطس فحققوا بعض النصر، ومن ثَمّ عادوا إلى الاقتتال فيما بينهم بسبب الصراع على الرئاسة، واختلف اليهود فيما بينهم أن كانوا يسلمون المدينة أم لا، وقد كان من الحكمة لو أنهم استأمنوا الرومان حفاظاً على حياتهم ومدينتهم وهيكلهم وثرواتهم، ولكن الكأس كان قد امتلأ وجاء زمن الانتقام، وهبّوا مرة أخر ليقاتلوا الرومان من على الأبراج والحصون أملًا في دحر الجيش عن مدينتهم، وحققوا بالفعل نصراً على الروم مما ساء في عيني تيطس فقرر المُضي قدماً في الحرب. وبينما انشغل الخوارج بالحرب فيما بينهم راح الرومان يهدمون السور الأول، ثم أرسل تيطس لليهود شخصًا يدعي نكانور يدعوهم للصلح مع الرومان ولكنهم رفضوا وقتلوه، فغضب تيطس لهذا

الغرض، وعادوا ليتصـارعوا في الداخل فانتهز تيطس الفرصـة فهدم جزءًا من السـور، ثم انتقل إلى السـور الثاني ليحدث فيه ثغرة كبيرة، وفي هذه الأثناء انضـم إلى جيش تيطس المؤلَّف من مئة ألف جندي من البلاد التي خضـعت لروما. وعاد تيطس ليوسِّـط يوسـيفوس للصـلح معهم، ولكنهم لم يسـمعوا له بل سـبّوه. وهاجمهم تيطس ولكنهم ردّوه على أعقابه، وهكذا كلما اشتد ضـغط الرومان من الخارج تصـالح الخوارج في الداخل، فما أن يحققوا بعض النصر حتي يعودوا ليتصارعوا فيما بينهم على السلطة.

وإمعانًا في الشـر قام شـمعون بقتل "أمتاي الكاهن" وأولاده الثلاثة وبعض الأشراف عندما علم أنهم يؤيدون تسليم المدينة، وانتشرت المجاعة وأُلقِيت الجثث خارج سور المدينة في الوادي، وأُضـطُرّ الناس إلى أكل ما لا يؤكل، بل أصـاب الجوع في بعض الأوقات الخوارج أنفسـهم، مما دفع الكثيرين إلى الهروب، ولاحظ الرومان أن الهاربين من جحيم الظلم والجوع في الداخل، كانوا قد ابتلعوا ما يملكونه من الذهب حتى إذا ما خرجوا استعادوه عند قضـاء الحاجة، ومن هنا قام بعض من الجنود الرومان بقتل كل هارب، علهم يجدون في جوفة بعضاً من الذهب!!

ثم هُدِم السـور الثالث، غير أن اليهود بنوا الجزء الذي هُدِم خلال الليل، وقاتلوا بشـدة، فيأس الرومان وفكروا في ترك أورشـليم، ولكن تيطس عاد فشـجعهم بأن النصـر وشـيك، ثم أرسـل عشـرين من شـجعان رجالة

فتسلّلوا وصعدوا وفتحوا الباب للجيش، فدخلوا المدينة واليهود نيام، ودحرهم الرومان حتى الهيكل، واستعاد اليهود شجاعتهم ونشب قتال شديد بين الفرقتين، وهُزِم الروم في اليوم الأول، ولكنهم قاموا بهدم برج أنطونيا فتمكنوا بذلك من القدس بشكل أفضل، وكان ذلك اليوم عيداً لليهود، فقام تيطس بمخاطبة اليهود طالباً إليهم أن يكفّوا عن المقاومة إكراماً للهيكل حتى لا يُدمَّر وتبطل الذبيحة، ولكن يوحنا أجابه بغليظ القول ورفض القوم رجاء تيطس واعتبروا أنفسهم قرابين مقبولة لدى الله! ولكن تيطس أنكر عليهم ذلك بسبب شرورهم، وذكّرهم بمسلك كل من "يكنيا الملك" الذي تدبّر الأمر وسلم المدينة حتى لا تهلك بمن فيها، في حين أساء "صدقيا" إلى شعبه ومدينته. وهكذا حرص تيطس كل الحرص للإبقاء على المدينة والهيكل والشعب، ولكن، وإزاء عنادهم وتصلُّفهم، قرر تدمير كل شيء، بل اخذ على عاتقه ما يقرب من "تدمير جنس اليهود كله".

وفي الداخل وصلت المجاعة حدًّا لم نسمع أو نقرأ بمثله، لا في أيام حصار السامرة (٢ملوك٦:٢٥)، ولا في أقصي مستويات المجاعة في مصر في عهد السلطان أبي بكر بن أيوب في عهد الدولة الأيوبية (١٢٠٠م)[٢] فبسبب المجاعة أخفت الزوجات الخبز عن أزواجهن وصار الأطفال يخطفون الطعام من أيدي آبائهم، وصار الناس يزدردون حبات

[٢] إغاثة الأمّة بكشف الغُمّة (تاريخ المجاعات في مصر) للمقريزي.

القمح قبل طحنها، أو يسفّون الدقيق دون خبزه وذلك حتي لا تدور الرحي أو يصعد دخان الفرن فيرى مَن الشارع ويهجم على أصحاب البيت، وأكل الناس الكلاب والحمير، إلى أن وصل الأمر الى الذروة حين نظرت أم في حسرة وهلع إلى طفلها الصغير الذي أوشك على الموت بسبب الجوع، وفي لحظة سجلها التاريخ قرّرت قتله حتى لا تتركه يواجه مصيره بالموت بطيئًا بسبب الجوع، ورأت أن تجعل من بطنها قبراً له، ومن ثَمّ أدارت وجهها الى الناحية الآخرى وذبحته، ثم طهت شيئًا منه وأكلته، فما أن اشتمّ الذين في الخارج رائحة اللحم المسلوق حتى هجموا كالوحوش عليها مستنكرين أن يكون لديها لحم تأكله في حين يموت الآلاف من الجوع، ولكنها طمأنتهم بأنها حفظت لهم نصيبهم هناك في إناء الطهي، فلما كشفوا الغطاء رُوِّعوا عندما شاهدوا جثة الطفل، فخرجوا مذعورين. وكان ذلك صدى لنبؤة السيد المسيح عن الهيكل وأورشليم عندما تبعته بعض النسوة يبكين وهو في طريقة ليصلب: «يا بَناتِ أورُشَليمَ، لا تبكينَ علَيَّ بل ابكينَ علَى أنفُسِكُنَّ وعلَى أولادِكُنَّ، لأَنَّهُ هوذا أيّامٌ تأتي يقولونَ فيها: طوبَى للعَواقِرِ والبُطونِ الّتي لَمْ تلِدْ والثُّدِيِّ الّتي لَمْ تُرضِعْ!» (لوقا٢٣:٢٨،٢٩)، بل حدث ما هو أبشع من ذلك حين قام الجنود الرومان بعد اقتحام أورشليم ببقر بطون الحوامل ورفع الأجنة على سنان الرماح بسبب كثرة غيظهم وشدة ضجرهم من عناد اليهود وأذاهم. وهكذا عندما قال السيد المسيح: «وويلٌ للحَبالَى والمُرضِعاتِ في تِلكَ الأيّامِ! لأَنَّهُ يكونُ ضيقٌ عظيمٌ علَى الأرضِ وسُخطٌ

علَى هذا الشَّـعبِ. ويَقَعونَ بفَمِ السَّـيفِ، ويُسـبَوْنَ إلَى جميعِ الأُمَمِ، وتَكونُ أورُشَليمُ مَدوسةً مِنَ الأُمَمِ، حتَّى تُكَمَّلَ أزمِنَةُ الأُمَمِ» (لوقا٢١:٢٣،٢٤)، كان الخوف على الحبالى من جرّاء صـعوبة التنقُّل، وربما الجوع الشـديد الذي تعاني منه الحبالى أكثر من الآخرين، ولكنه لم يدر بخلد أيّ إنسان أن يصل الأمر إلى شـقّ بطونهن والتشـهير بالأجنة على هذا النحو المريع.. لقد أكّد جميع الشراح والمؤرخين علي أن حصـار أورشـليم ودمارها لم يحدث مطلقًا في تاريخ العالم مع مدن أو شعوب أخرى.

النهاية:

كان اقتحام السـور الأول (سـور أغريباس) في اليوم الخامس من الحصـار، بينما أُقتُحِم السـور الثاني في اليوم الرابع والعشـرين، وفي اليوم الثاني والسـبعين سـقطت قلعة أنطونيا، وبعد ذلك بأثني عشـر يومًا توقفت الذبيحة اليومية في الهيكل «ومِنْ وقتِ إزالَةِ المُحرَقَةِ الدّائمَةِ وإقامَةِ رِجسِ المُخَرَّبِ ألفٌ ومِئَتانِ وتِسعونَ يومًا» (دانيال ١٢:١١).

عندما حوصـر اليهود داخل الهيكل وداخَلَهم الشـكّ في الخلاص، اشتبكوا مع الرومان فسقط كثيرون قتلى من الجانبين، فعاد تيطس ليدعوهم للمحافظة على الموضـع فلم يسـمعوا له، وكان بعض الجنود الرومان قد تسـلّلوا إلى داخل قدس الأقداس، وهو المكان المحظور على أحد دخوله

سوى رئيس الكهنة مرة واحدة في السنة في عيد الكفارة، ولكن اليهود تتبعوهم إلى هناك وقتلوهم، فأنكر تيطس ذلك على اليهود لأنه قدس الأقداس فلم يرجعوا، وعادوا للاشتباك مع الجنود الرومان، وصلّى تيطس إلى إلهه لكي لا يضع عليه وزر ذلك ويشهده على عناد اليهود. وقد حاول بعض اليهود إبّان ذلك الهروب من المدينة، ولكن اتباع الخوارج منعوهم، في حين تلطّف بهم الجنود الرومان!

ثم عمد اليهود إلى محاولة يائسة أخيرة فاحتالوا على الرومان حيلة ماكرة، حيث دخلوا إلى قصر مجاور للهيكل، مُبَطَّن جمعيه بالخشب، فطلوه بمواد قابله للاشتعال، فلمّا حدثت مواجهة بين الفريقين هرب اليهود داخل القصر فتبعهم الرومان، غير أن اليهود خرجوا جميعًا خفية من أبواب خلفية، بينما بقي الرومان منتشرين في جميع أركان القصر وأدواره وسطحه وشرفاته، فأشعل اليهود القصر بالنار فهلك جميع من في القصر من الجنود، فهلع الرومان من ذلك وتراجعوا ليحاصروهم من جديد، واشتبك الفريقان فمات كثير من اليهود واستسلم آخرون.

وبدأ اليهود في الترنّح وبدت النهاية وشيكة، وكانت النبوة على وشك التحقق: «ذلكَ اليومُ يومُ سخَطٍ، يومُ ضيقٍ وشِدَّةٍ، يومُ خَرابٍ ودَمارٍ، يومُ ظَلامٍ وقَتامٍ، يومُ سحابٍ وضَبابٍ. يومُ بوقٍ وهُتافٍ علَى المُدُنِ المُحَصَّنَةِ وعلَى الشُّرُفِ الرَّفيعَةِ. وأُضايِقُ النّاسَ فيَمشونَ كالعُميِ، لأنَّهُمْ أخطأوا إلَى

الرَّبِّ، فيُسفَحُ دَمُهُمْ كالتُّرابِ ولَحمُهُمْ كالجِلَّةِ. لا فِضَّتُهُمْ ولا ذَهَبُهُمْ يستطيعُ إنقاذَهُمْ في يومِ غَضَبِ الرَّبِّ، بل بنارِ غَيرَتِهِ تؤكلُ الأرضُ كُلُّها، لأنَّهُ يَصنَعُ فناءً باغِتًا لكُلِّ سُكّانِ الأرضِ» (صفنيا ١:١٥-١٨).

وعاد تيطس وأوصى جنوده بعدم المساس بالهيكل. ولكن بعض اليهود أشاروا عليه أنه ما لم يحرق هذا المكان فاليهود لن يكفّوا عن مقاومة الرومان ما دام هذا الهيكل قائمًا، غير أن أحد الجنود ألقى شعله على الباب الكبير المُغشّى بالفضة فاحترق وانصهرت الفضة على الأرض، ومن ثَمّ صار الطريق مُمهَّدًا إلى بقية محتويات الهيكل كله، فنصبوا أصنامهم وقدموا القرابين لها، ولكن اليهود الذين نظروا ذلك غاروا على الموضع فقاموا بقتل اولئك الجنود فجاء تيطس وقتل اليهود، وهرب الباقون إلى صهيون. وجاء اليوم الأخير والمشئوم وهو التاسع من أغسطس (آب) سنة ٧٠م لتتم فيه نبوة السيد المسيح بشكل قاطع، وتردّد صدى نبوءة دانيال: «وفي وسَطِ الأُسبوعِ يُبَطِّلُ الذَّبيحَةَ والتَّقدِمَةَ، وعلَى جَناحِ الأرجاسِ مُخَرِّبٌ حتَّى يتِمَّ ويُصَبَّ المَقضيُّ علَى المُخَرِّبِ» (دانيال ٩:٢٧)، «وتَقومُ مِنهُ أذرُعٌ (فرق الجيش) وتُنَجِّسُ المَقدِسَ الحَصينَ، وتَنزِعُ المُحرَقَةَ الدّائمَةَ، وتَجعَلُ الرِّجسَ المُخَرِّبَ» (دانيال ١١:٣١).

واندفع الجنود في ذلك الصباح إلى الداخل، وأشعلوا النار في باب قدس الأقداس وكان مُغشى بصفائح الذهب، فلما سقط صرخوا صراخًا

عظيماً، فجاء تيطس ليمنعهم ولكنه لم يستطع بسبب ضيق الجنود وكثرة صبرهم ومعاناتهم من شر اليهود وعنادهم، وراح تيطس يصرخ في ذلك اليوم لكي يكفوا عن تدمير الهيكل حتي "بُحَّ صوته"، وقد تعجب كثيرًا من جمال وروعة الهيكل وقدس الأقداس والذي فاق جمال جميع الهياكل والمعابد في شتى بقاع العالم، وقال: "حقًّا كان لجميع ملوك العالم الحق في إرسال أثمن الهدايا لهذا الهيكل". ثم جاء بعض الكهنة ليدافعوا عن الموضع ولكنهم يئسوا بسبب المشهد فألقوا بأنفسهم في النيران ليموتوا مع آخر أمل تبقى لهم في الحياة. وانتهى الهيكل ولم تقم له قائمة حتى اليوم، وحتى الحائط الذي يبكى اليهود عنده الآن ويُسمّى "حائط المبكى" هو في الواقع من ملحقات الهيكل وليس من مبانيه الأصلية. ويماثل اليوم الذي احترق فيه هذا الهيكل (ويُسمّى الهيكل الثاني) اليوم الذي أحرق فيه البابليون الهيكل الأول (هيكل سليمان). وكان اليهود حتي ذلك اليوم يتوقعون مجيء المسيا ولو في آخر لحظة.. غير أنهم لم يعرفوا أنهم قد صلبوه منذ ٤٠ عاماً!

وفي اليوم الثاني لاحتراق الهيكل، ظهر رجل يدّعي النبوة قائلاً إن الهيكل سوف يُبنى كما كان من غير يد إنسان بل بيد الله، فقوموا على ما أنتم فبه من مقاومة الروم، فلما سمعوا كلامه اجتمعوا ليقاتلوا الروم ولكنهم هُزِموا أشر هزيمة.

الغنائم:

بعد احتراق الهيكل قام "هوشـــع الكاهن" بتســـليم تيطس المنارتين الذهبيتين والمائدتين الذهبيتين مع أدوات عديدة من الذهب الخالص، ثم قبض تيطس على "فنحاس" القائم على خزائن الهيكل وطالبه بما تحت يديه، فسلمه جميع الخزائن وبها ما لا يُحصى من الذهب والفضة والجواهر والمال والثياب الذهب الخاصة بالكهنة مع أطياب كثيرة، فمضى بها تيطس إلى روما في موكب ضخم من الأسرى الذين زيّن بهم موكب نصرته.

وأمّا عن عدد القتلى والأسرى، فقد ذكر يوسيفوس نقلا عن "مناجيم" المُوكَّل بأحد أبواب المدينة إنه أحصـــى الموتى الذين خرجوا من الباب بحوالي ١٢٥,٨٠٠ (مئة وخمســة وعشــرين ألفًا وثمانمائة قتيل)، وأخبر الذين لجأوا إلى الرومان أنهم أحصـــوا الذين اخرجوا من جميع الأبواب بحوالي ستمائة ألف قتيل، بخلاف الذين طُرِحوا في الآبار والذين ماتوا في الشـوارع بدون دفن، والذين طرحوا من الحصـون والذين ماتوا في القدس، وربما وصـل العدد بما فيه ممن قتله الروم ومن قتله الجوارح: حوالي مليون إنسان ومئة ألف، وأمّا السبايا فوصل عددهم إلى سبعة وتسعين ألفًا.

وقد آمر تيطس بصـــلب الآلاف منهم حتى أنه لم يعد يجد أخشـــابًا ليصـلب عليها المزيد، بل قيل إنه كان يصـلب كثيرين على خشـبة واحدة، بمعنى أنه ما أن يموت اليهودي المصـــلوب حتى يلقي به عن الصـــليب

ليصلب آخر مكانه. وهكذا بالكيل الذي كالوا به كيل لهم أضعافًا مضاعفة، إذ ماذا كان ينتظرون بعد أن صلبوا فاديهم ومخلصهم؟!

وترك تيطس أكداسًا من القتلى وبحيرات من الدم المتخثّر في الأورقة المقدسة وحول المذبح ذاته. والنار ظلت أيامًا تلتهم خشب الصندل المُطعَّم. وانتهى الهيكل وأصبح كومة من الخراب المرعب. واستوفت المدينة عقابها، وها هو دم هابيل الصديق وزكريا بن براخيا يصرخ، وها هو صداهما يخرج من أورشليم الآن، ويقول يوسيفيوس إنه بعد ما صار بأورشليم لم يكن أي إنسان يري فيها أي شيء من الجمال حتى ولو كان من سكان الصحراء، ولو أن يهوديًا نزل المدينة فجأة لما تعرّف علي أي شيء فيها، وفارق مجد الرب البيت بل والمدينة كلها. «إنهُم أُمَّةٌ عَديمَةُ الرّأيِ ولا بَصيرَةَ فيهِمْ. لو عَقَلوا لَفَطِنوا بهذِهِ وتأمَّلوا آخِرَتَهُمْ. كيفَ يَطرُدُ واحِدٌ ألفًا، ويَهزِمُ اثنانِ رَبوَةً، لولا أنَّ صَخرَهُمْ باعَهُمْ والرَّبَّ سلَّمَهُم؟... أليس ذلكَ مَكنوزًا عِندي، مَختومًا علَيهِ في خَزائني؟ ليَ النَّقمَةُ والجَزاءُ. في وقتٍ تزِلُّ أقدامُهُمْ. إنَّ يومَ هَلاكِهِمْ قريبٌ والمُهَيّآتُ لهُمْ مُسرِعَةٌ.» (تثنية٣٢:٣٨-٣٠و٣٤و٣٥).

وفي الطريق، وبعد أن ترك تيطس المدينة والنيران ما تزال تشتعل فيها، باع آلافًا من الأسرى اليهود رجالاً ونساءً وأطفالًا، وعشرات الآلاف لم يوجد من يشتريهم فألقى الكثيرين منهم للوحوش وفي مدرجات

المصـــارعات، وأهلك كثيرين في الطريق، وأرســل ألافًا منهم إلى المناجم، وفي روما سـخّر الباقين بمن فيهم الأشراف اليهود في بناء "الكوليزيوم" وهو الملعب الشـهير في روما. ولم ينجُ سوى المسيحيين الذين هربوا إلى الجبال عملاً بنصـيحة السـيد المسـيح لهم، حيث سـكنوا في بلدة "بلا" في عبر الأردن.

الموضع المقدس بعد خرابه:

ظلّ الموقع تحت حراسـة حامية عسـكرية لمدة سـتين عاماً، لم يحدث خلالها سوى صدام بين اليهود واليونانيين (الإغريق)، سالت فيه دماء كثيرة وذلك في سنة ١١٨م.

وفي سـنة ١٣٢–١٣٥ م قامت ثورة اليهود الكبرى المعروفة بثورة "بار كوكبا" (ابن الكوكب) بتعضـــيد من "الرابي عقيبا" في محاولة منه لتحرير أورشـــليم، وذلك علي إثر إقامة تمثال جوبيتر في موضـــع الهيكل، ولكن الحاكم الروماني "يوليوس سـاويرس" سـحق هذه الثورة وقضـى على بقية اليهود هناك، ويُقال إن عدد من الذين قُتِلوا نصـف مليون يهودي، وقد أمر "اينوس روفوس" (ربما بناء على أمر من الإمبراطور) بحرث موضـــع الهيكل، ثم أقام مذبحاً للإله جوبيتر في موضـعه حسـبما يرد في التلمود الأورشـليمي، وربما جاء ذلك إتمامًا لنبوة ميخا النبي: «لذلكَ بسَـبَبِكُمْ تُفلَحُ

صِهيَوْنُ كحَقلٍ، وتَصيرُ أورُشَليمُ خِرَبًا، وجَبَلُ البَيتِ شَوامِخَ وعرٍ» (ميخا٣: ١٣)، ثم حرّم على اليهود العودة إلى أورشليم وإلّا تعرّضوا للقتل.

وفي سنة ١٣٨م أعاد الملك هادريان بناء المدينة، ثم أقام تمثالًا له على صهوة جوداه في موضع قدس الأقداس حيث ورد ذلك في سياق تعليق العلامة أوريجانوس على (إشعياء ٨:٢ ومتى ١٥:٢٤). ثم ظلّ الموقع أطلالًا حتى القرن السابع، حيث لم تقم الملكة هيلانة بإعادة بناء الهيكل، بل اهتمت فقط بالمواضع التي شهدت ميلاد السيد المسيح وصلبه ومحاكمته (أي بما هو مسيحي وليس يهوديًا)... وعندما قام العرب بفتح بيت المقدس أقام عمر بن الخطاب مسجدًا فوق موقع الهيكل، وفي الوقت ذاته بنى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في نفس المكان قبة الصخرة الشهيرة، وذلك في سنة ٦٩١م.

وفي يوم ٢٠٠١/٧/٢٩م حاول اليهود بتشجيع من بعض الحاخامات المتشدّدين وضع حجر الأساس للهيكل الثالث، وقد حدثت مواجهات شديدة بين اليهود والفلسطينيين نتيجة لهذه المحاولة.

التينة والرياء

فقالَ للكَرّامِ: هوذا ثَلاثُ سِنينَ آتي أطلُبُ ثَمَرًا في هذِهِ التّينَةِ ولَمْ أجِدْ. اِقطَعها! لماذا تُبَطِّلُ الأرضَ أيضًا؟ (لوقا١٣: ٧).

لعلّ الأوراق التي غطّت شجرة التين دون أن يكون معها ثمر، كانت إشارة إلى الرياء، حيث يوحي المنظر الخارجي بالبهاء والعظمة بينما الداخل خاوٍ، وقد عالج السيد المسيح مثل ذلك في تعليمه حين بَكَّت الكتبة والفريسيين بسبب رياءهم، فقد اهتموا بتبييض القبور وتنقية خارج الكأس والصحفة، في حين أن الداخل مملوء نجاسة. ومن الملفت أيضًا أن السيد المسيح حين عاتبهم على حرصهم على غسل الأيدي، باعتبار ذلك رياءً، ومن ثَمّ طلب منهم أن يعطوا كل ما عندهم صدقة وحينئذ كل شيء سيتطهر لهم، فما معنى ذلك؟ معناه أن الاهتمام بالعمل الخفي أهم بكثير من الاهتمام بالمظهر.

أُطلِقت كلمة "مرائي" في البداية على الممثّل المسرحي والذي كان "يتراءى" للجمهور في غير مشاعره الحقيقة، مثلما يظهر باكيًا في حين لم يكن هو شخصيًا يعاني مما يسبّب البكاء، أو يظهر ضاحكًا في حين أن داخله مملوء همومًا، ومن ثَمّ اتسعت الكلمة واتسع مفهومها لتعني بشكل عام: كُل من يظهر بخلاف ما يبطن.

والناس من جهة الرياء أنواع: شخص بار في عيني نفسه، وآخر بار في أعين الآخرين، وثالث بار قدام الله؛ أمّا الأول فهو المعجب بذاته والراضي عنها، يعبدها ويقدّم لها بخورًا كل صباح، يدلّلها ويقارن نفسه بالآخرين فيجد ذاته الأفضل دائمًا والمستحق أعلى الدرجات، مثل الفريسي في مَثَل الفريسي والعشار، هذا يهلك بكبريائه. وأمّا البار في أعين الآخرين فهو الذي يسعى جاهدًا لكي يمتدحه الناس، فيحسِّن صورته قدامهم ويبذل في سبيل ذلك الكثير من الجهد والوقت، فيكذب ويخدعهم ويصدّق نفسه مع الوقت، وربما تسوّل المديح في بعض الأوقات حين يكفّ الناس عن تمجيده، إنه النفاق... وأما البار قدام الله فهو الذي يبكّت نفسه، ويرفض المديح، ويعرف قدر نفسه، ويهمّه بالأولى رأي الله، بل بالأحرى يرى نفسه قدام الله عبدًا بطّالًا، وإذا وقف قدامه ألقى برأسه على صدره مثل العشّار، ولذلك فقد هلك الفريسي بسبب رضاه عن نفسه وتفضّله على الله، في حين خَلُص العشار حين حسب نفسه كلا شيء، وسلّم هذا العشار البار الكنيسة هذا الطقس في التوبة، أي طقس الانسحاق قدام الله وأنه الخاطئ الوحيد. وقد قيل عن زكريا واليصابات: «وَكَانَا كِلاَهُمَا بَارَّيْنِ أَمَامَ اللهِ، سَالِكَيْنِ فِي جَمِيعِ وَصَايَا الرَّبِّ وَأَحْكَامِهِ بِلاَ لَوْمٍ» (لوقا ١:٦).

إن شجرة التين تذكّرنا بأولئك الذين يهتمون كثيرًا بمظهرهم الخارجي وينتظرون تعليق الناس ومديحهم، وقيل إن الاهتمام بالخارج يأتي على حساب الداخل، وكلما اهتم الإنسان بإصلاح الداخل وتنقيته كلما قلّ

اهتمامه بالخارج، الأخطر من ذلك أن يتظاهر شـــخص بالاتضـــاع لكي يجلب المديح لنفســه عن طريق ذلك، وهو يشـبه في ذلك من ينصـب فخًا للآخرين... فهو فقير وأعمى وعريان وبائس، ولكنه يظهر كمن هو متخلٍ عن الغنى والمجد والكرامة حبًا بالله!!

فلتكن العبادة نفســها بلا رياء، أي لا يُظهِر الشــخص الورع والتقوى والتدين الشـكلي الذي بكّته السـيد المسـيح، فالعفّة مثلًا لا ترتبط بحشـمة الملابس فقط، ولكنها سلوك داخلي، وفضيلة راسخة في الداخل...

ويوجد من يذمّ نفســه وينعتها بأســوأ الصــفات، ولكنه في المقابل لا يحتمل إنْ وصــفه البعض بإحداها، ويتضــح بذلك أنه إنما كان يقول ذلك تباهيًا وليس اتضــاعًا، حقا يقول القديس ســيرابيون: "الاتضــاع لا أن تلوم نفســك ملامة باطلة، ولكن الاتضــاع أن تحتمل الملامة التي تأتيك من الآخرين"، وقيل: "مَدَحَ الآباء شــخصًــا بين يدي الأنبا أنطونيوس، فأراد أن يختبره إن كان يحتمل المذمة فلم يحتمل، فقال: 'هذا الإنســان يشــبه قرية مزينة من الخارج ولكن داخلها عظام أموات'."

بل أن الناس قد يؤثرون الشرير الواضح على البار الكاذب، ويرون أن ذلك الشــرير وذلك اللص عندما يتوب قد يســبق كثيرين، ولكن المرائي والمتصــنِّع صــعب عليه أن يتوب لأنه بســبب ريائه قد يجفّ من الداخل وتتقلّص محبة الله ومخافته فيه. ومما تجدر به الملاحظة أن الإنســان هو

المخلوق الوحيد الذي بإمكانه التمثيل والتصـنّع، فلا الطيور ولا الوحوش ولا الجماد، ربما "الحرباءة" هي الوحيدة التي تفعل ذلك ولكنه ليس بإرادتها إنما لكي تنجو من الخطر، وليس لكي تخدع الاخرين أو تحصل على مديحهم!

طلب اليهود – وكأنهم يطلبون نصـيحة السـيد المسـيح – رأيه في إعطاء الجزية لقيصـر أم لا، وكانوا في الواقع يحاولون تصـيُّد خطأ له: «فَعَلِمَ رِيَاءَهُمْ، وَقَـالَ لَهُمْ: لِمَـاذَا تُجَرِّبُونَنِي؟» (مرقس١٢:١٥)، ثم طلـب منهم أن يعطوا مـا لقيصـر لقيصـر وما لله لله. وعندما سألوه في شـأن المرأة التي تزوجت سـبعة، في النهاية لمن تكون زوجة في الملكوت، كانوا كذلك يسـخرون منه، ولكنه وبّخهم قـائلًا: «تضِـلّونَ إذ لا تعرِفونَ الكُتُـبَ ولا قوَّةَ اللـهِ» (متى٢٢:٢٩) وغيرها... بعكس اللص اليمين الذي جدّف اولًا ثم تاب بعد ذلك...

وربما لا يلاحظ البعض أن السـيد المسـيح عندما بكّت البعض قائلًا: «يا مُرائي،أخرِجْ أوَّلًا الخَشَـبَةَ مِنْ عَينِكَ، وحينَئذٍ تُبصِـرُ جَيِّدًا...» (مت٧: ٥)، كان يشير إلى أن الشخص غافل عن خطاياه ويتظاهر بحب الآخرين والخوف عليهم، ولكن الأهم أن يخلص هو. إن عثرة النـاس فيمن كـانوا يظنون أنهم أبرار وقديسـون لهي كبيرة جدًا، أكثر من عثرتهم في شـخص يسـيء إليهم، كما أن المحبة نفسـها يجب أن تكون بلا رياء (رومية١٢:٩). والرياء في هذه الحالة هو الإيحاء للآخر بأنك تحبه: «هكذا أنتُمْ أيضًـا: مِنْ خارِجٍ تظهَرونَ للنّاسِ أبرارًا، ولكنكُمْ مِنْ داخِلٍ مَشـحونونَ رياءً وإثمًا» (متى٢٣:٢٨).

وفي قراءات ثلاثاء البصخة عن أمثال السيد المسيح التي تعالج هذه القضية من بعض وجوهها؛ ففي مثل الابنين كان الأول مرائيًا لأنه أطاع أولًا ولكنه لم يذهب، بينما سلك الثاني على العكس منه؛ وفي مثل العرس وبينما رأى البعض في الثياب اللازمة للحضور رمزًا للمعمودية، رأى آخرون أنه قد يكون شكلًا قد يلتزم به الشخص مهما كان داخله خربًا؛ وفي حديث السيد المسيح عن الهيكل وأورشليم كان الهيكل أعظم تحفة معمارية في العالم في ذلك الوقت، ولكنه كان مغارة لصوص من الداخل، وبينما كانت أورشليم مدينة الملك العظيم كان "ملك الملوك" داخلها يُحاكَم ليُقتَل، وستُعاقَب المدينة بالدمار.

ولكن السؤال الذي يراود البعض هو: هل يتخلّى الإنسان عن ظاهره الذي ينال استحسان الناس، لأنه يشعر بالنفاق لأنه ليس كذلك من الداخل؟؟ كلّا! وإنما ليجتهد في إصلاح الداخل بينما لا يتخلّى عن الورع الخارجي، بل يتخلى فقط عن أيّة رغبة في خداع الآخرين بهذا المظهر، وذلك لئلا يتخلى إنسان عن مظهره الممدوح من الخارج ليبدأ من جديد، فيتعثّر ويأس وقد لا يفعل فيخسر الاثنين.

كذلك لا يفوتنا أن الله أحيانا يغطّي ضعفاتنا قدام الناس، ويسترنا لكي لا يعثر فينا أحد ولكي لا نفقد احترامهم، ولكن علينا ألّا نستغل ذلك، حتى لا ندع الله يسمح بأن نفتضح، حيث استغلال ذلك (أي الاكتفاء بأوراق التين) يحرمنا من الثمار.

ألحان أسبوع الآلام

في هذا الأسبوع رتّبت الكنيسة أعذب وأرق الألحان، وأشدّها تأثيرًا وتبكيتًا، لدرجة يبكى المصلّي معها (لاسيما إذا كان الخورس متناسقًا مصلّيًا لا مؤدّيًا). وبهذه الألحان الراقية نشترك مع المسيح في آلامه، فهي تبكتّنا من جهة، ومن جهة أخرى نبكّت أنفسنا لأننا تسبّبنا في هذه الآلام وهذا الموت، إذ نستحق نحن الألم والموت فنبكيه إذًا ونبكي أنفسنا... تمامًا مثلما يحدث أثناء صلاة القسمة في القداس، فبينما يقسّم الكاهن الجسد على المذبح، يردّ الشعب: "يارب ارحم.. يارب ارحم.. يارب ارحم"، يقولونها بنغمة الرثاء والبكاء.. شاعرين في أنفسهم أنهم هم المستحقون للموت.. هم الذين تسبّبوا في هذه الآلام..

وخلال الأسبوع كله نردّد مئات المرات: "ثوك تى تي جوم" (لك القوة والمجد والبركة والعزة..)، نقولها لنؤكّد أن المسيح الظاهر أمامنا في صورة الضعيف هو قويّ وله القوة، وفي صورة المُهان له العزة، وفي التخلّي له المجد، هكذا يقول القديس أثناسيوس الرسولي في لحن أومونوجينيس: "قدوسٌ القوي الذي أظهر بالضعف ماهو أعظم من القوة..."

وبينما المسيح معلَّق على الصليب نرتّل عدة ألحان منها:

+ لحن فاي إيتاف إنف: "هذا الذي أصـــعد ذاته ذبيحة مقبولة على الصـليب عن خلاص جنسـنا"، فنؤكّد أنه أصـعد ذاته.. أي بإرادته وحده قبل الموت.

+ لحن طاي شـوري: "هذه المجمرة الذهب النقي، الحاملة العنبر، التي في يـدي هرون الكـاهن يرفع بخورًا على المـذبح". ويُقال هذا اللحن بينما المسـيح معلَّق على الصـليب (وقت السـاعة السـادسـة)، فهو رئيس الكهنـة الأعظم والحقيقي والـذي كـان هرون وكـل رئيس كهنـة يشـــير إليه، وبينما كان هارون يرفع بخورًا على المذبح في القديم، يقدِّم المسيح ذبيحة نفسه على الصليب.

+ لحن تي شوري: "المجمرة الذهب هي العذراء، وعنبرها هو مخلّصنا، ولدته وخلّصـــنا وغفر لنا خطايانا". ويُقال هذا اللحن وقت الســـاعة التاســـعة والمســـيح ميّت على الصـــليب، وعنبر المجمرة هو آلام الصـليب والتي اشـتمّ الله منها رائحة السـرور من على الجلجثة وهو مـا يتكرّر في لحن فاي ايتاف انف: "فاشـــتمّه أبوه الصـــالح وقت المساء على الجلجثة".

+ لحن بيك اثرونوس: "كرســـيّك يا الله إلى دهر الدهور. قضـــيب الاســـتقامة هو قضـــيب مُلكك". ونقول هذا اللحن للســـيد المســـيح مرتين: الأولى ظهر الثلاثاء من البسخة مع بشائر الآلام والصليب،

والثانية في السـاعة الثانية عشـرة من يوم الجمعة، لنقول له إنك اخترت الصليب عرشًا لك، والصليب مرتفع عن الأرض لأنك قلت: «مملكتى ليستْ من هذا العالم». لقد اخترنا الصليب رمزًا للمسيحية ليس لأنه رمز الألم فحسب، وإنما لأنه العرش الذي اختاره الله لنفسه والرمز المُحبَّب إليه (إذ أن الصليب واضح في مسيرته بالجسد منذ ولادته وحتى الصلب).

واللحن عبارة عن نصفين: الأول تغلب عليه نغمة الحزن إذ نحن نتألّم معه، والثاني نغمة الفرح فقد خلُصنْا بالصليب ذاته والمصلوب عليه..

+ لحن الجلجثة (غولغوثا): النغمات ذاتها فرعونية مثل الكثير من الألحان القبطية، وكان اللحن يقال أثناء تحنيط الفراعنة، اختارته الكنيسة ليحكي لنا قصة صلب الرب وموته ودفنه، ولكل عبارة من عباراته أهمية كبيرة:

* "الجلجثة بالعبرانية، الإقرانيون باليونانية، الموضع الذي صلبوك فيه يارب": هو بذلك يؤكد على الموضع الذي تمّ فيه الصلب، باعتبار ذلك ليس أسطورة أو قصة لا أساس لها، وإنما يحدّد الموقع بدقة وتسمياته في أكثر من لغة.

* "بسطتَ يديك": أي أنك صُلبت بإرادتك وحدك.

* "صلبوا معك لصيْن، عن يمينك وعن يسارك": كما جاء في النبوة «وأُحصي مع أثمة» (إشعياء ٥٣:٩)، ولكي يتأكد من سيبحث عن الصليب أنه مع اثنين آخريْن، أي سيجد ثلاثة صلبان معًا، وربما صليب الرب متميز عنهما قليلًا. أو لئلا يجد أي صليب فيتخيله صليب الرب.

* "وأنت قائم في وسطهما": القيام هنا يذكّرنا بأن المسيح قائم مذبوح، وأنه قائم يقدّم ذبيحة نفسه فهو رئيس الكهنة الحقيقي، وقد رآه يوحنا الرائي الحمل القائم كأنه مذبوح: «وَفِي وَسَطِ الشُّيُوخِ خَرُوفٌ قَائِمٌ كَأَنَّهُ مَذْبُوحٌ» (رؤيا ٥:٦).

* وأمّا تعبير "أيها المخلص الصالح" فهو إلى جوار معناه الرائع العام، فهو يشير هنا إلى المقارنة بينه وبين باراباس (والذي كان في نظر أتباعه من الثوار اليهود مخلصًا)، وكذلك تذكير بما قاله بيلاطس: وأيّ شرٍ صنع؟! لست أجد علة في هذا البار (لوقا ٢٣: ٢٢،٤).

* بعد ذلك يأتي تمجيد الآب والابن والروح القدس، فهو وإن كان مصلوبًا وفي مظهر الضعف، إلاّ أنه الإله الذي يجب له التمجيد دائمًا.. وتمجيد الثالوث تأكيد هام على أن الثالوث القدوس يشترك في الخلاص، فمع أن أقنوم الابن هو الذي تجسد وصُلِب، إلا أن

الآب مخلص والابن مخلص والروح القس مخلص، ونقول في لحن أومونوجينيس "أيها الثالوث القدوس خلصـــنا وارحمنا"، الآب أرســـل الابن الوحيد يبذله عن العالم، والروح القدس ينقل لنا بركات الفداء.

* وأمّا صـــــراخ اللص واعترافه فهو تخليد لهذا اللص الذي بكلمة واحدة اســتحق الفردوس، وأن الله رغم ما يبدو عليه من ضـــعف فهو المخلص والفادي ومايزال يعمل حتى في شـــــدة آلامه، فهو يغفر ويهب الفردوس.

* ثم يروي اللحن قصة تكفين الجسد من قبل الرجلين اللذين استحقا التكريم والتخليد في واحد من أروع ألحان الكنيسة.

* يُختم اللحن بتوسل من الشعب إلى المسيح المصلوب بأن يسحق الشيطان تحت أرجلنا.

* هذا وقد صـــار تقليد في الكثير من الأحيان أن يُرتَّل لحن غولغوثا عند دفن الآباء، مثلما كانت وما زالت شـهوة الكثيرين في أورشـليم أن يدفنوا إلى جوار قبر المخلص.

حجر الزاوية

قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ:«أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ فِي الْكُتُبِ: الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ؟ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كَانَ هذَا وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا! لِذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَلَكُوتَ اللهِ يُنْزَعُ مِنْكُمْ وَيُعْطَى لأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ. وَمَنْ سَقَطَ عَلَى هذَا الْحَجَرِ يَتَرَضَّضُ، وَمَنْ سَقَطَ هُوَ عَلَيْهِ يَسْحَقُهُ!». وَلَمَّا سَمِعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيُّونَ أَمْثَالَهُ، عَرَفُوا أَنَّهُ تَكَلَّمَ عَلَيْهِمْ. وَإِذْ كَانُوا يَطْلُبُونَ أَنْ يُمْسِكُوهُ، خَافُوا مِنَ الْجُمُوعِ، لأَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ مِثْلَ نَبِيٍّ. (مت٢١:٤٢-٤٦).

على أبواب الصليب، ومع نهاية خدمة السيد المسيح على الأرض، كان صادقًا جدًا في مواجهة اليهود بالحق؛ فقد أتى لخلاصهم، وأعلن لهم كيف رفضوه هو الحبيب والفادي والمخلص وصاحب العرس وصاحب الكرم، فلمّا سألهم عن رأيهم في الكرامين الأردياء، أجابوا بتلقائية عن صاحب الكرم: يأخذ منهم الكرم ويسلمه إلى كرّامين آخرين (متى٢١:٣٣-٤١)، وكان بذلك يستدرجهم إلى منصّة المحاكمة، ومن ثَمّ أعلن الحُكم عليهم: «أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ فِي الْكُتُبِ: الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ؟»، وكان يشير إلى موقفهم منه ومن الملكوت والخلاص. هكذا صرّح القديس يوحنا: «إِلَى خاصَّتِهِ جاءَ، وخاصَّتُهُ لَمْ تقبَلهُ» (يوحنا١:١١)، كما أن الرؤساء بعد أن رفضوا الحجر، لم يعودوا يصلحون لأن يكونوا بنّائين، ولذلك سيختار الله بنّائين آخرين للعمل في بنائه الجديد.

البِنَاء العملاق – والذي كان الحجر المقصـود هو أهم جزء فيه – كان عبـارة عن عِقـد أو "آرش" عملاق، وهو يُبنى من الجـانبين على إطـار *Frame* يتخذ شـكل الـــ"آرش"، والبنّاؤون المحترفون يبنون دون "فورمة". وعندما التقى البنّائون قرب النهاية صـــرخ كلٌّ منهما في العمال: "أين حجر الزاوية؟ أين حجر العِقد؟"، وتلفّت العمال متعجّبين ماذا يعني البنّاء بذلك؟! فقال لهم إن مفتاح الـــ"آرش" زاوية البناء، ثم راح يشرح لهم شكله وفكرته، وهنا فاجأوه بأنهم ألقوا بهذا الحجر بعيدًا لأن أبعاده غير متســاوية مثل بقيّة الحجارة (جدير بالملاحظة أن الكلمة العبرية "بنّا" والتي تعني "زاوية" تتشـابه مع كلمة "ابهن" والتي تعني "حجرًا")!

والســـيد المســـيح يقارن هنا بين الأمرين: "الابن المرفوض" و"الحجر المرفوض" (في العبريـة: "بن" *ben*، و"ايبن" *eben*)؛ وقد قيل عنه: «وجيلُهُ مَنْ يُخبِرُ بهِ؟» (أعمال٨:٣٣)، أي: في جيله من يشـبهه، أو ليس له مثيل. هكذا شـــابهنا في كل شـــيء إلاّ من جهة لاهوته ومن جهة أنه بلا خطية، وفي آلامه كان بلا منظر نشتهيه (إشعياء٥٣:٢).

وفي العبادات الوثنية (مثل العبادة الكنعانية) كان هذا الحجر يُســـتَقبَل باحتفالات مهيبة، وتُقدَّم الذبائح البشرية له، وعند وضـعه كان توضـع تحته تلك الذبائح؛ وهي عادات تجنّبها بنو إسرائيل.

ولكن لماذا رفض اليهود المسـيح؟ كان اليهود يطلبون أن توافق تعاليمه انحرافاتهم وآمالهم الدنيوية وتمسّـكهم الحرفي بالناموس، ولكن المسـيح أتى

لا لينقض الناموس بل ليكمل هذا البناء بحجر الزاوية الذي هو نفسه، فإن غاية الناموس هي المسيح (رومية١٠: ٤)، كما أن الناموس يجد كماله في المسيح، وبدون المسيح يظل الناموس ناقصًا ولا يقدم الشفاء.

الله الذي رفضوه – مثلما يرفضه البعض الآن– هو صمام الأمان في الحياة، وهكذا كل من يرفض الله من حياته تتهدّد تلك الحياة بأن يتهاوى بناؤها، هكذا الذين يرفضون الله الآن ويحاولون إسكات ضمائرهم عن كثرة تبكيتهم على خطاياهم، وبدلًا من مواجهة أنفسهم والتخلّي عن خطاياهم، يرفضون الله، ويحاولون إقناع آخرين بأنه لا إله! ويحاولون من خلال مواقع التواصل الاجتماعي الترويج للإلحاد، حقًا يقول الكتاب: «قالَ الجاهِلُ في قَلبِهِ: ليس إلهٌ» (مزمور ١٤: ١؛ ٥٣: ١).

هكذا نحن نرفض ما هو لخلاصنا إذا لم يكن متفقًا مع مشيئتنا الخاصة وما نرغبه، والنصيحة التي يقدمها البعض وقد لا تروق للسامع (إذ يعتبرها: حجرًا مرفوضًا) هي ذاتها مفتاح وصمام الأمان. فالراحة الإلهية ليست دائمًا منطقية، أي قد لا توافق العقل والمنطق دائمًا، بل تبدو أنها ليست على هوانا. ولكن ليس كل ما يرضينا يبنينا، ولا كل ما يبنينا يرضينا.

ومن بين ما قد نرفضه كلمة في نصّ (أو حرف ربما أو علامة ترقيم) قد تكون مفتاح النص، ونوع من الأدوية قد يكون فيه الشفاء، ونوع من

الطعام قد يكون فيه الغذاء، ويأتي الرفض بناءً على الشكل ودون دراسة، وقد يكون شخص بين مجموعة ويكون هو نفسه أهمها ومفتاحها.

في القديم كان الحجر يشير إلى الأمّة اليهودية التي رُفِضت من الأمم، وكان يجب أن يصبحوا رأس الزاوية في العالم كله ولكنهم انحمقوا، وبرغم خطاياهم كانوا يظنون أنهم أهم حجر في بناء الكون! ورأى المفسرون الأوائل أن الله عندما قال ذلك على فم داود النبي (مزمور ١١٨) كان يقصد أنه سيعيد بناء خيمة داود الساقطة، ويرد مجد إسرائيل.

ولكن رُفِض اليهود، وبعد قيامة المسيح تأكّد أنه حجر الزاوية إذ صارت القيامة هي العمود الفقري للمسيحية «هذا هو: الحَجَرُ الّذي احتَقَرتُموهُ أيُّها البَنّاؤونَ، الّذي صارَ رأسَ الزّاويَةِ» (أعمال ٤:١١)، ويقول معلمنا بولس: «مَبنيّينَ علَى أساسِ الرُّسُلِ والأنبياءِ، ويَسوعُ المَسيحُ نَفسُهُ حَجَرُ الزّاويَةِ» (أفسس ٢:٢٠)، وكذلك القديس بطرس: «فلكُمْ أنتُمُ الّذينَ تؤمِنونَ الكَرامَةُ، وأمّا للّذينَ لا يُطيعونَ، "فالحَجَرُ الّذي رَفَضَهُ البَنّاؤونَ، هو قد صارَ رأسَ الزّاويَةِ"» (بطرس الأولى ٢:٧).

لقد اعتبر اليهود هذا الحجر – الذي هو المسيح – حجر عثرة، فأرادوا رفعه من طريقهم الشرير، وقد أشار الرب إلى أن الهيكل الذي رفضوا حجر الزاوية فيه سيُهدَم عن آخره، كما قُرِن رفضه كصاحب الكرم برفض حجر الزاوية، والمرفوض في القديم صار أساس الجديد.

«وَلَمَّا سَـمِعَ رُؤَسَـاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِـيُّونَ أَمْثَالَهُ، عَرَفُوا أَنَّهُ تَكَلَّمَ عَلَيْهِمْ. وَإِذْ كَانُوا يَطْلُبُونَ أَنْ يُمْسِـــكُوهُ، خَافُوا مِنَ الْجُمُوعِ، لأَنَّـهُ كَانَ عِنْدَهُمْ مِثْلَ نَبِيٍّ» (آية ٤٥،٤٦).

شجرة الحياة

في أسبوع الآلام لاحظنا أننا ومنذ عصر أحد الشعانين وحتى خميس العهد قد رجعنا إلى الخلف في صحن الكنيسة، دون أن يجرؤ أحد على الدنوّ من الهيكل؛ فالباب مُغلَق، والمذبح مُغطىً. نعم لقد أكل آدم من شجرة المعرفة: «وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الإِلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلأَكْلِ، وَشَجَرَةَ الْحَيَاةِ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ» (تكوين٢:٩). فطرده الله "بحبّ" حتى لا يأكل من شجرة الحياة التي في وسط الجنة، فيحيا إلى الأبد في خطيته: «وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الأَبَدِ» (تكوين ٣:٢٢).

فأكل آدم.. وعرف أنه عريان، ومثل شخص دخله سمٌ مميت فلزم نقله إلى المستشفي حتى يُعالَج، ولذلك يسمّي الآباء الإفخارستيا: "دواء الخلود" (أو: "دواء عدم الموت").. هذا صنعه المسيح في تجسده إذ نزع سم الخطية وأعاد الإنسان إلى كامل صحته، أي جدّد الطبيعة البشرية.

من هنا كان لابد لنا أن نخرج إلى خارج الهيكل، إلى المكان الذي يقف فيه الموعوظون والباكون، يرون عن بُعد ولا يجرؤون على الدنو من الهيكل حيث شجرة الحياة (الجسد والدم على المذبح) حتى ينالوا الصبغة المقدسة ويحق لهم حينئذ الدخول والتناول.

فلمّا حصل التعدّي وقعت العقوبة على آدم وبنيه: «فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الإِلهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا. فَطَرَدَ الإِنْسَانَ، وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ، وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ» (تكوين٣:٢٣،٢٤)، ولعلّه إلى ذلك يشير الشماس الواقف عند التناول وبيده شمعة، ليمنع غير المستحقين، وكان الشماس هو عين الأسقف ينبّهه عن الهراطقة وغير المستعدّين والذين يحيون في خطيتهم.. هذا أيضًا يذكّرنا بالذي يحيا في خطيته إذ يمنعه الأب الكاهن من التناول لفترة، وإلا سيأخذ دينونة لنفسه، بل تنصح الكنيسة إن كان أحد عليه روح نجس ألاّ يناوله أهله، وإلّا سيبقى الروح معه..

يقول مار أفرام السرياني:"لم يكن آدم يعرف ضرر هذه الشجرة ونفع تلك، أمّا الآن فإنه يعرف، فإذا تركه الله سوف يأكل منها ويحيا إلى الأبد" (لأنه لا يمكن أن يموت إن أكل منها).

ولكنه سيموت حسب تحذير الله.. لهذا يجب أن يخرج من الفردوس إلى الأرض التي يمكن أن يموت فيها؛ وكما أسكن الله آدم مقابل الفردوس ليتحسّر فيندم ويتوب، هكذا تمنع الكنيسة الخطاة والذين لم يتخلّصوا من خطاياهم بالاعتراف ونوال الغفران بدم المسيح، من التناول من شجرة الحياة..

الإفخارستيا والإنسان:

خلق الله الإنسان ليأكل من شجرة الحياة ويحيا إلى الأبد (شجرة الحياة التي في وسط الجنة)، ولكن الحية أغوت حواء لتحرمها من ذلك وتفسد عليها هبة الحياة مع الله إلى الأبد.. ويدخل الشر طبع الإنسان ويفسد ويموت، ولكن الله بحث عن حلٍّ.

شجرة الحياة هي موضوع الكتاب المقدس كله.. فهي موجوده في أول سفر التكوين (تكوين٣:٢٢): «وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: "هُوَذَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الأَبَدِ». وكذلك في نهاية سفر الرؤيا: «مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ مَا يَقُولُهُ الرُّوحُ لِلْكَنَائِسِ. مَنْ يَغْلِبُ فَسَأُعْطِيهِ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ الَّتِي فِي وَسَطِ فِرْدَوْسِ الله» (رؤيا٢:٧)، «طُوبَى لِلَّذِينَ يَصْنَعُونَ وَصَايَاهُ لِكَيْ يَكُونَ سُلْطَانُهُمْ عَلَى شَجَرَةِ الْحَيَاةِ، وَيَدْخُلُوا مِنَ الأَبْوَابِ إِلَى الْمَدِينَةِ» (رؤيا٢٢:١٤)، لاحظ في تعبير "يدخلوا المدينة من الأبواب"، إشارة إلى الطرد من المدينة ثم السماح لاحقًا بالولوج إليها.

لقد خلق الله آدم ليأكل طعامًا من يده يحيا به إلى الأبد، ولكن الإنسان تناول طعامًا خاطئًا.. وظل الإنسان يأكل ويموت، بل والطعام الذي يأكله يموت به، وعبّر الأبيقوريون عن ذلك بقولهم: "لنأكل ونشرب اليوم لأننا غدًا نموت.."، وأصبح الطعام الذي هو علامة حياة هو نفسه

علامة موت، يتحلّل الإنسان ويتحوّل إلى تراب: «لأَنَّكَ [يا آدم] تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ» (تكوين٣:١٩). فقد لُعِنت الأرض بسبب آدم، وأنبتت له شوكًا وحسكًا، وصار الأكل يذكّرنا بالموت.. ونلاحظ أن من أوائل قراءات اثنين البسخة هذه القصة (أي سقوط الإنسان الأول)، والتي تُقرأ بتوسّع في طرح الساعة التاسعة من يوم الاثنين، مع توسّل من الشعب يقول: "أسألك أيها الصالح أن تصنع معنا رحمة كعظيم رحمتك".

وتأوّه الناس وبكوا.. وطلبوا إلى الله أن يصنع لهم طعامًا لا يموتون متى أكلوه.. إلى ذلك الطعام المحيي والذي من يد الله أشارت وليمة المنّ والسلوى في البرّية (خروج١٦:١٣-٣٥).. ووليمة الحكمة (أمثال٩:١-٦).. المائدة التي رتّبها الله لداود النبي (مزمور٢٣:٥).. الخبز والخمر في تقدمة ملكي صادق (تكوين١٤:١٨)، الحنطة.. الكروم.. والتي ذُكِرت كثيرًا، الجمرة التي تناولها إشعياء من يد الملاك (إشعياء ٦:٦-٧).. وغيرها كثير.

إلى أن تجسّد ابن الله: وفي معجزة إشباع الجموع فرح الشعب ومشى خلفه، ولكنه عاتبهم لأنهم تبعوه لأنهم أكلوا وشبعوا فقط من الطعام الجسداني.. وطالبهم أن ينشغلوا بالطعام الباقي (مثلما عاتب مرثا وطوّب مريم)، وكأنّي به يقول لهم: "أنا مستعد أن أعطيكم ما تطلبونه من طعام.. ولكنكم ستموتون أيضًا.."، لقد طلبوا من موسى قديمًا طعامًا فأعطاهم طعام

السماء، فماذا يعطيهم هو ليسيروا وراءه؟! إنهم لم يقنعوا بخبز موسى فطلبوا أرضًا تفيض لبنًا وعسلًا!! قال لهم الرب: «آبَاؤُكُمْ أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ وَمَاتُوا» (يوحنا ٦:٤٩)، لقد كان المنّ رمز شجرة الحياة فقط لا شجرة الحياة!! وعندئذ صارحهم قائلا: «أَنَا هُوَ الْخُبْزُ الْحَيُّ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ.. أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ.. لِكَيْ يَأْكُلَ مِنْهُ الإِنْسَانُ وَلاَ يَمُوتَ.. إِنْ أَكَلَ أَحَدٌ مِنْ هذَا الْخُبْزِ يَحْيَا إِلَى الأَبَدِ.. مَنْ يَأْكُلْنِي فَهُوَ يَحْيَا بِي» (يوحنا٦:٤٨،٥١، ٥٠، ٥٧،٥١)، ثم استدرجهم وقال لهم: «مَنْ يَأْكُلْ جَسَدِي وَيَشْرَبْ دَمِي يَثْبُتْ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ» (يوحنا٦:٥٦)، وما دام هو الحياة «أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ» (يوحنا١١:٢٥)، فالذي يتّحد به يتحد بالحياة الأبدية: «مَنْ يَأْكُلُ جَسَدِي وَيَشْرَبُ دَمِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ» (يوحنا٦:٥٤).

ونلاحظ في الأصحاح السادس من إنجيل يوحنا (أكثر النصوص إسهابًا ووضوحًا في شرح الإفخارستيا والخلود) تلك المقارنة الرائعة –وعن قصد– بين الخبز الذي يميت والآخر الذي يُحيي!! وقد تحيّر السامعون من الكلام مثلما يتحيّر اليوم كل من نناقشه في الإفخارستيا، فلما قال الرب يسوع هذا رجع كثيرون إلى خلف مستنكرين: «كَيْفَ يَقْدِرُ هذَا أَنْ يُعْطِيَنَا جَسَدَهُ لِنَأْكُلَ؟» (يوحنا٦:٥٢).. فقال للباقين: «أَلَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا تُرِيدُونَ أَنْ تَمْضُوا؟» (يوحنا٦:٦٧)، أي أنه ليس عندي سوى هذا الكلام!! ولكن التلاميذ الذين تعلّقت نفوسهم به قالوا له: «يا رَبُّ، إِلَى مَنْ نَذْهَبُ؟ كلامُ

الحياةِ الأبديَّةِ عِندَكَ» (يوحنا ٦٨:٦)، أي أنك أنت عرّفتنا كيف تُحلّ قضية الموت والحياة.. أنت تفكّ اللغز.. تحلّ لنا المشكلة.

الآن يمكننا أن نأكل من شجرة الحياة.. ليس أننا ذهبنا إليها، ولكن الأروع هو أنها هي التي جاءت إلينا، حقًا قيل عن المسيح إنه "شجرة الحياة التي لا يموت آكلوها".

ولكن كيف نأكل منها؟

إذا أردنا ذلك فعلينا بالتطهّر أولًا: نتوب.. نعترف.. نتعمّد، ثم نتناول؛ لهذا نسرع بمناولة المُعمَّد، لقد تطهّر وأصبح مستعدًا لهذه النعمة، فلا مجال ولا مبرر للتأخير.. دخل المُعمَّد في عهد الأبدية: «مَنْ يَأْكُلُنِي فَهُوَ يَحْيَا بِي» (يوحنا ٥٧:٦).

وفي سفر الرؤيا (سفر الحياة الأبدية) يقول القديس يوحنا: «وَأَرَانِي نَهْرًا صَافِيًا مِنْ مَاءِ حَيَاةٍ لاَمِعًا كَبَلُّورٍ، خَارِجًا مِنْ عَرْشِ اللهِ وَالْخَرُوفِ. فِي وَسَطِ سُوقِهَا [وسط الجنة] وَعَلَى النَّهْرِ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَاكَ، شَجَرَةُ حَيَاةٍ تَصْنَعُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ثَمَرَةً، وَتُعْطِي كُلَّ شَهْرٍ ثَمَرَهَا، وَوَرَقُ الشَّجَرَةِ لِشِفَاءِ الأُمَمِ. وَلاَ تَكُونُ لَعْنَةٌ مَا فِي مَا بَعْدُ» (رؤيا٢٢: ١-٣)، ونلاحظ هنا المقابلة بين مسكن الله مع الناس قديمًا وحديثًا، والشجرة مقابل الشجرة، ولكن الحمل الحقيقي هو الشجرة التي لا يموت آكلوها، ولا توجد لعنة فيما بعد مقابل اللعنة التي جاءت على آدم في الجنة. هكذا نتخلّص من اللعنة ونقف لنسبح إلى الأبد.

آدم الأول ممنوع من شـــجرة الحياة، وآدم الثاني قدّم الأكل الجديد الواهب الحياة. عندما نتعمّد نولد من جديد، وليس كآدم وبني آدم خطاة محكوم عليهم بالموت، وإنما خليقة جديدة في المسيح.

لذلك...

كان المحكوم عليهم يخرجون بعد التناول بفرح إلى الاستشهاد مصلين لأجل جلاّديهم، فقد تزوّدوا بقُوت الأبدية، كذلك المريض المشـــرف على الموت، أكثر ما يحرص عليه ذووه هو أن يناولوه حتى لا يموت!! بل يحيا إلى الأبد.. أي يأخذ الأبدية من الآن (يعطى عنّا خلاصًـــا وحياة أبدية)، فكيف يترك الناس الحياة الأبدية ويذهبون إلى الآبار المشـــقَّقَة؟ إن الذي يعاني من مرض صـعب مسـتعد لدفع أي ثمن لينجو ولتطول حياته، فماذا عن دواء عدم الموت: الإفخارستيا!

المسـيحي مخلوق سـمائي، يفكّر فيما للسـمائيات "خين نيفاوي"، خُلِق ليحيا إلى الأبد، فلمّا أخطأ بحث الله له عن ترياق عدم الموت كما أشـــار القديس كيرلس الكبير، ومن هنا تتلخّص حياة المسـيحي في هذا السـؤال: هل تتناول؟

لحن بي أويك:

"خبز الحياة الذي نزل لنا من السماء، وهب الحياة للعالم. وأنتِ أيضًـا يا مريم حملتِ في بطنكِ المنَّ العقلي الذي آتي من الآب. ولدتِه بغير دنس

وأعطانا جســـده ودمه الكريم فحيينا إلى الأبد. يقوم حولك الشـــاروبيم والســـارافيم ولا يســـتطيعون أن ينظروك. ونحن ننظرك على المذبح ونتناول من جســـدك ودمك الكريم. من أجل هذا نعظمكِ باســـتحقاق بتماجيد نبوية. لأنهم تكلموا من أجلكِ بأعمال كريمة أيتها المدينة المقدســـة التي للملك العظيم. نسأل ونطلب أن نفوز برحمة، بشفاعتكِ عند محب البشر".

آلام الرب يسوع النفسية

وَجَاءُوا إِلَى ضَيْعَةٍ اسْمُهَا جَثْسَيْمَانِي، فَقَالَ لِتَلاَمِيذِهِ: «اجْلِسُوا ههُنَا حَتَّى أُصَلِّيَ». ثُمَّ أَخَذَ مَعَهُ بُطْرُسَ وَيَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا، وَابْتَدَأَ يَدْهَشُ وَيَكْتَئِبُ. فَقَالَ لَهُمْ:«نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدًّا حَتَّى الْمَوْتِ! اُمْكُثُوا هُنَا وَاسْهَرُوا». ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلاً وَخَرَّ عَلَى الأَرْضِ، وَكَانَ يُصَلِّي لِكَيْ تَعْبُرَ عَنْهُ السَّاعَةُ إِنْ أَمْكَنَ. وَقَالَ:«يَا أَبَا الآبُ، كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لَكَ، فَأَجِزْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسَ. وَلكِنْ لِيَكُنْ لاَ مَا أُرِيدُ أَنَا، بَلْ مَا تُرِيدُ أَنْتَ». ثُمَّ جَاءَ وَوَجَدَهُمْ نِيَامًا، فَقَالَ لِبُطْرُسَ:«يَا سِمْعَانُ، أَنْتَ نَائِمٌ! أَمَا قَدَرْتَ أَنْ تَسْهَرَ سَاعَةً وَاحِدَةً؟ اِسْهَرُوا وَصَلُّوا لِئَلاَّ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ. أَمَّا الرُّوحُ فَنَشِيطٌ، وَأَمَّا الْجَسَدُ فَضَعِيفٌ». وَمَضَى أَيْضًا وَصَلَّى قَائِلًا ذلِكَ الْكَلاَمَ بِعَيْنِهِ. ثُمَّ رَجَعَ وَوَجَدَهُمْ أَيْضًا نِيَامًا، إِذْ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ثَقِيلَةً، فَلَمْ يَعْلَمُوا بِمَاذَا يُجِيبُونَهُ. ثُمَّ جَاءَ ثَالِثَةً وَقَالَ لَهُمْ:«نَامُوا الآنَ وَاسْتَرِيحُوا! يَكْفِي! قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ! هُوَذَا ابْنُ الإِنْسَانِ يُسَلَّمُ إِلَى أَيْدِي الْخُطَاةِ. قُومُوا لِنَذْهَبَ! هُوَذَا الَّذِي يُسَلِّمُنِي قَدِ اقْتَرَبَ!» (مرقس١٤: ٣٢-٤٢).

لم تكن الآلام التي كابدها السيد المسيح هي الآلام الجسدية فقط بالرغم من أنها كانت شديدة جدًا، حيث كانت آلام الصلب وما قبله يصعب

وصفها لشناعتها، حتى أن الرومانيين واليونانين خجلوا من ذكرها؛ ما بين الإهانات في القبض عليه، وعملية الجلد الوحشية، إلى إكليل الشوك الدامي، إلى دقِّ المسامير في اللحم، وارتطام الصليب في الحفرة وهو مُعلَّق عليه...الخ.

قرأت ذات مرة أن أهالي ثلاثة من المصلوبين استطاعوا التوسّط لدى الحاكم لينزلوهم عن الصلبان، ولكن اثنين منهم ماتا بينما عاش الثالث معوَّقًا. وكانت نسبة كبيرة من المحكوم عليهم بالموت صلبًا يموتون بالفعل قبل أن يصعدوا على الصليب، وكانت الآلام رهيبة جدًا فأبشع أنواع التعذيب هي الصليب.

ولا شك أن عنصري الجسد والنفس يرتبطان أحدهما بالآخر ارتباطًا وثيقًا، فإذا تألم الجسد تألمت النفس تبعًا له والعكس صحيح أيضًا، والمريض الذي تتحسّن نفسيته ويمسك بالرجاء والأمل في الحياة يمكنه التغلّب على مرضه والخلاص منه، والمُتعَب نفسيًا يذبل جسده مع الوقت نتيجة امتناعه عن الطعام أو معاناة الهضم والبلع أحيانًا. وقيل إن بعض الأطباء النازيين أرادو التحقّق من التأثيرات النفسية على حياة المريض، فعصّبوا عيني شخص محكوم عليه بالإعدام، وربطوه في سرير، وغرسوا إبرة في وريده، وأوهموه أنهم سوف يسحبون دمه قليلًا قليلًا ليموت بهدوء ودون ألم، ومع مرور الوقت كانوا يوهمونه أنهم سحبوا كميات متزايدة من الدم، وكان هو تبعًا لذلك يزداد اضطرابًا، ويزداد وجهه اصفرارًا، حتى إذا ما أخبروه أنه لم يتبقّى في جسده سوى سنتيمترات من الدم فارق الحياة

على الفور، مع أنهم لم يكونوا حتى تلك اللحظة قد سحبوا منه قطرة دم واحدة!

بل أن الآلام الجسدية يمكن تحمّلها أكثر من تلك الأخرى النفسية، فيمكن للشخص أن يحتمل ألم المرض، الكسور، الجروح، العمليات الجراحية، وربما بعض الخسائر المادية والمالية، ولكنه يتهاوى تحت ثقل الآلام النفسية، وأيوب الصديق –الذي توجد بعض أوجه من الشبه فيما بينه وبين المسيح – احتمل الخسارة المادية من جهة القطعان التي كان يمتلكها وكذلك المنازل وغيرها، ثم تألم لفقدان عائلته، ثم بسبب تعبه الجسدي، ولكن أكثر ما آلمه هو المعاناة النفسية لا سيما عندما أمعن أصدقاؤه في إتعابه دون قصد منهم. ونقرأ أن يوليوس قيصر استطاع أن يقاوم الخونة طويلًا بمفرده حتى لمح بينهم بروتس صديقه الحميم، وحينئذ خارت قواه وسقط مغشيًا عليه، ومثل طفل قد تضربه فلا يحزن، وقد تحرمه مما يحبه فلا يعاتبك، ولكن يؤلمه نظره سخرية أو كلمة احتقار، وسواء كان كبيرًا أو صغيرًا فالإنسان عندما يتعرّض للتحقير يشعر أنه "جُرِح أو ذُبِح"، ويمكن لكلمة جارحة أو مسيئة أن تحرم شخصًا من النوم أو الأكل أو العمل، وقد تجعله ينطوي، وإذا تكرّر مثل ذلك مع الطفل فإنه ينشأ منطويًا وغير اجتماعي، ويعاني من مشاكل نفسية مثل صغر النفس، بل لقد تخلّص البعض من حياتهم بسبب كلمة قيلت لهم أو كُتِبت فيهم. لذلك فإن كلمات التشجيع لها تأثير جبار على المُتعَب جسديًا أو نفسيًا، فكما تنقذ كلمة مشجِّعة شخصًا من الضياع، فإن كلمة رديئة قد تودي بمستقبل إنسان وربما حياته.

في وقت مضى –وليس بعيدًا– كانوا في إحدى الدول العربية يتعاملون مع الخصوم السياسيين بطريقة غاية في الإذلال والتعذيب النفسي إذ كانوا يعرّضونهم لعمليات إعدام وهمية، فيعصبون عيونهم ويربطونهم إلى أعمدة ويتلون عليهم حكم الإعدام، ثم يبدأ العدّ التنازلي لإطلاق النار، وفي النهاية وعند الصفر يصدر الأمر بإيقاف التنفيذ!! وعندما كانوا يطلقون سراحهم بعد ذلك لم يكونوا غالبًا ليعودوا طبيعيين.

لا شك أن هناك أشخاصًا أقوياء لا تصغر نفوسهم ولا تتعب بسهولة، يتألمون ولكنهم لا ينكسرون، يعانون دون أن يُحبَطوا، يتجرّحون ولكن دون يأس، لا يرضخون بسهولة، ولا يبيعون القضية ببساطة نتيجة سماعهم كلمة أو تعرّضهم لخيانة أو وشاية... فالذي حدث مع السيد المسيح أنه تألم بقدر كبير جدًا، وشعر بكل الذي حدث، وعانى كل هذه الآلام، ولو لم يكن قد شعر بكل ذلك لما كان تجسُّده وتأنُّسه حقيقيين، ولو كان اللاهوت قد تدخّل في تخفيف الألم عنه لما كان الفداء كاملًا.

لقد كان السيد المسيح إنسانًا كاملًا جسدًا ونفسًا وروحًا، ولم يحلّ اللاهوت محلّ الروح الإنسانية كما ادّعى بعض الهراطقة أيضًا، فلكي يفتدينا كبشر كان من الضروري أن يتّخذ جسدًا كاملًا، تصفه الكنيسة: "هوس رومي انتيليوس = إنسان كامل"، فالجسد تألم كما هو واضح من الأناجيل والتاريخ، وأيضا النبوات التي تثبت وجود الجسد الحقيقي: «جَسَدِي أَيْضًا سَيَسْكُنُ عَلَى رَجَاءٍ» (عمال ٢:٢٦)، والنفس تألمت حيث

عبّر عن ذلك بالقول: «نَفْســـي حَزِينَـةٌ جِدًّا حَتَّى الْمَوْتِ!» (متى٢٦:٣٨؛ مرقس١٤:٣٤)، وعن الروح قال: «يَا أَبَتَاهُ، فِي يَدَيْكَ أَسْـــتَوْدِعُ رُوحِي» (لوقا٢٣:٤٦)؛ ولأن اللاهوت لم تقع عليه الآلام، ولكي يشرب الرب الكأس كاملة، فإن النفس والجسد تألّما كثيرًا؛ ولكن كيف تألم المسيح نفسيًا؟

بدأت آلام المســيح النفســية – أو لنقل الصــليب – منذ ولادته، فقد انتقلت مريم العذراء مع يوســف وهي ما تزال حُبلى، من الجليل إلى بيت لحم بســبب الاكتتاب وهي رحلة شــاقّة على الاثنين، ووُلد في مذود إذ لم يكن لهما موضـــع في بيت أو فندق، وفي الطفولة المبكّرة طارده هيرودس طالبًا أن يقتله فهرب إلى مصـر حتى موت ذلك الملك الحسـود، وفي بكور خدمته تعرّض للتبكيت أكثر من مرة من ذويه بســبب شــكاوى اليهود: «فخرجوا ليمســكوه» (مرقس٣:٢١)، ثمّ بدأ اليهود يصــادرونه في تعليمه ويتصيّدون له الأخطاء، ويحتجّون على الشفاء في السبوت، وحاولوا تشكيك الذين شُــفُوا على يديه بأنه ليس من الله لأنه لا يحفظ الســبت، ويحتجّون عليه بأي سـلطان يقول هذا أو يفعل ذاك، بل نسـبوا معجزاته إلى السـحر وإلى بعلزبول! وحـاولوا مرارًا قتلـه بـالرجم (يوحنـا ٨:٥٩؛ ١٠:٣١)، كمـا طردوه من أكثر من مدينة، مثل صـور وصـيدا كما أرادوا ذات مرة أن يرموه من فوق جبل كانت مدينتهم قائمة عليه (لوقا ٤:٢٩)، وفي النهاية أســلموه إلى الرومان حسـدًا، بالرغم من كراهيتهم الشـديدة للرومان باعتبارهم وثنيين.

وكان الرب قد نبههم إلى ذلك في مثل الكرم والكرامين: «فأَخَذوهُ وأخرَجوهُ خارِجَ الكَرمِ وقَتَلوهُ» (متى٢١: ٣٩) وهكذا «إِلَى خَاصَّتِهِ جَاءَ، وَخَاصَّتُهُ لَمْ تَقْبَلْهُ» (يوحنا١: ١١).

كما تألّم الرب بسبب تلاميذه؛ لقد خصّهم له واختارهم ليكونوا تلاميذه، وشرح لهم أسرار ملكوت السموات، أكل وشرب معهم، وعلّمهم وسافر معهم، واعتبرهم أخصّاءه وأحباءه وأصدقاءه، وأعطاهم مواهب وقوى ليكرزوا، ومع ذلك تركوه عند الصلب مع أنه نبّههم بأنهم سيتفرّقون كل واحد إلى خاصته ويتركونه وحده، وقال للقديس بطرس: «هُوَذَا الشَّيْطَانُ طَلَبَكُمْ لِكَيْ يُغَرْبِلَكُمْ كَالْحِنْطَةِ!» (لوقا٢٢: ٣١)، إلاّ أنهم هربوا عند القبض عليه خوفًا من أن يبدأ اليهود في البحث عنهم واحدًا بعد الآخر، ولكن اليهود لم يفعلوا لأن الرب كان يعلم أنه عندما يُضرب الراعي تتبدّد الرعية (متى٢٦: ٣١؛ مرقس١٤: ٢٧). يقول القديس مرقس: «فَتَرَكَهُ الْجَمِيعُ وَهَرَبُوا» (مرقس١٤: ٥٠).

وحتى التلاميذ الثلاثة الذين كانوا الأقرب إليه: بطرس ويعقوب ويوحنا، والذين أخذهم في مهام خاصة مثل: إقامة ابنة يايروس، وعلى جبل التجلي، وفي بستان جثسيماني – حتى هؤلاء لم يستطيعوا السهر معه ساعة واحدة، لقد تألم في تلك الليلة وعانى حتى صار عرقه كقطرات دم، ونسمع عن يوحنا فقط أنه هو الذي رافقه حتى الصليب، وبينما لا نسمع

عن القديس يعقوب شـــيئًا، فإن القديس بطرس لم يحتمل نظرات الشـــك والاتهام من جارية بسـيطة فأنكر نسـبته للمسـيح ومعرفته به، وكان الرب ينظر إليه عن بُعد متألمًا لا ســـيما وأن بطرس كان قد تحمّس للدفاع عن المسيح والسجن بل والموت معه أو عنه، «قالَ لهُ بُطرُسُ: ولَوِ اضطُرِرتُ أنْ أموتَ معكَ لا أُنكِرُكَ!. هكذا قالَ أيضًـــا جميعُ التلاميذِ» (متى٢٦:٣٥) هذا آلمَ المسيح جدًا.

قال لهم شـامخًا: «نَامُوا الآنَ وَاسْـتَرِيحُوا!... أَهكَذَا مَا قَدَرْتُمْ أَنْ تَسْـهَرُوا مَعِي سَـاعَةً وَاحِدَةً؟... أَمَّا الرُّوحُ فَنَشِـيطٌ وَأَمَّا الْجَسَـدُ فَضَـعِيفٌ»، ولاطفهم ونصـحهم لحياتهم:«اسْـهَرُوا وَصَـلُّوا لِئَلاَّ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ» (مت٢٦:٤٥، ٤١).

كذلك تألم المسيح من سلوك يهوذا الذي خانه، رغم اختيار المسيح له وائتمانه على صـــندوق العطايا، ومن المؤلم أن يبيع ســـيده بثلاثين من الفضـــة وهو مبلغ زهيد يســـاوي ثمن عبد! ولم يكن يهوذا بالرجل الفقير، ولكنه خان في النهاية، والأصـعب من ذلك أن جاء مع الذين قبضـوا على المسيح كدليل لهم، وقبّله قبلة غاشّـة تستنكرها الكنيسـة ليس طوال أسـبوع الآلام فحسب وإنما طوال الوقت حيث يشير يهوذا الإسخريوطي إلى الخيانة في أصعب صورها. وفي النهاية ألقى المال على الأرض ومضى وانتحر!

لقد جعل الرب من التلميذ الذي سيخونه أمينًا للصندوق، ويصف الذي سينكره مع أول ضغطة بـــ"صخرة"، ويدعو الشخص الرقيق "بوانرجس"، أي ابن الرعد، ولكنه أعطاهم الألقاب التي سوف يكونون عليها بعد ذلك.

كما تعجّب المسيح من سلوك بيلاطس نفسه أثناء المحاكمة، لقد أشفق عليه، وكان مقتنعًا أنه بريء، لكن اليهود كانوا يشـــعلون النار كمن يحرّكونها بعصا لتشتعل أكثر، وحاول بيلاطس أن يطلق سراحه أكثر من مرة، بينما هم يزدادون صياحًا: «اصلبه اصلبه»، والسيد المسيح ينظر إليهم بمرارة: لماذا يفعلون هذا، وهو الذي جاء لأجلهم؟، وفي نهاية الأمر ينزل بيلاطس على رغبتهم، فيخشـــى على منصـــبه ويأمر بصـــلبه، بل ســـخروا منه وهو على الصـــليب وعيّروه قائلين: «إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللهِ فَانْزِلْ عَنِ الصَّـــلِيبِ!» (مت٢٧: ٤٠).

تألم أيضًا السيد المسيح بسبب حكم بيلاطس، كان بيلاطس متأكدًا أنه بريء، ولكنه خاف على كرسية وخاف من معاقبة الإمبراطور له، ومع ذلك فإن السيد المسيح كشخص نبيل ومهذَّب ترك لبيلاطس الفرصة أن يقوم بعمله ويحاكمه، وأكمل المحاكمة إلى النهاية، وقد آلم الربَّ أنه مهما صاح اليهود مشتكين فإن القرار بيد بيلاطس!

تصـــوّروا أبًا يفعل كل ما بوســـعه لأجل ابنه، ويكون رأي الابن أن ما يفعله أبوه إنما هو سلوك غريزي، وأنه يفعل ما يتوجّب عليه أمام ضميره وأمام

المجتمع.. تصوروا مشاعر الأب... تصوروا لو أن أحد الآباء قرّر أن يُسجن مكان ابنه، فيشيّعه الابن حتى السجن شامتًا ساخرًا معتبرًا أن أباه ساذجٌ!

نظر الرب بمرارة باتجاه أورشليم قائلًا: «إِنَّكِ لَوْ عَلِمْتِ أَنْتِ أَيْضًا، حَتَّى فِي يَوْمِكِ هذَا، مَا هُوَ لِسَلاَمِكِ! وَلكِنِ الآنَ قَدْ أُخْفِيَ عَنْ عَيْنَيْكِ» (لوقا١٩:٤٢)، فكما طردوا الرب من مدنهم، بل وأسلموه للموت، طُرِدوا هم أيضًا، وقُتِل من قُتِل، وبيع من بيع، وسُجِن من سُجِن، وتشتّتوا من يومها وحتى اليوم، ولا توجد دولة خالية من اليهود، رغم أن عددهم في العالم كله لا يتعدى أربعة عشر مليونًا.

ها هوذا الذي بلا خطية صار خطية لأجلنا.. البار يموت عن الأثمة!

ومن السخافات التي آلمت المسيح أيضًا هي تعرُّضه للّطم على سبيل التسلية والسخرية، ومِن الذي يضع قصبة في يمينه، ويلبسه الأرجوان، وإكليل الشوك بدلًا من الذهب والغار ليسخروا منه كملك وهمي، وينحنون أمامه كما يفعلون مع الملوك: «السَّلاَمُ يَا مَلِكَ الْيَهُودِ!» (متى٢٧:٢٩)، هكذا سخروا من آلامه وعذاباته؛ هذا من جنود الرومان وجنود الهيكل وبعض اليهود ورؤسائهم، ولنتخيّل شعور السيد المسيح عندما لطمه عبد رئيس الكهنة لقد عاتب بلطف ممزوج بالمرارة وكأنه يقول له هذا الجندي الروماني وثني ولا يدرك جيدًا ما يفعله ولكن لماذا تقتدي به أنت؟ «أَجَابَهُ يَسُوعُ: إِنْ كُنتُ قد تكلَّمتُ رَدِيًّا فَاشْهَدْ عَلَى الرَّدِيِّ، وَإِنْ حَسَنًا فلماذا تضْرِبُني؟» (يوحنا ١٨:٢٣). ونعرف أن الكلمات اللطيفة يمكنها أن تعين

الشـــخص المتألم على تجاوز آلامه، أو التخفيف عنه، أمّا الكلمات المهينة الساخرة فمن شأنها أن تضاعف الآلام؛ كلمة تشجيع تشفي وتكافئ وتعزّي، وكلمة قاسية تجرح وتدمي وتحبط.

ولماذا يهينه اللصـــان في البداية «كانَ اللِّصّـــانِ اللَّذانِ صُـــلِبا معهُ يُعَيِّرانِهِ» (متى٢٧: ٤٤)؟ إنهما لصّـــان وقاتلان، وصُـــلِبا عقابًا على جرائم اقترفاها، فكيف يســخران من آخر مصــلوب معهما وهو في شــدة آلامه؟! تراجع اللص اليمين وتمادى اللص الشمال، وفي كل هذا كان السيد المسيح قويًا، وشـــرب الكأس إلى آخرها، بل أعطى كثيرًا بقوة وشـــموخ وهو على الصليب: فأعطى الغفران لصالبيه، وليوحنا أمًّا بارة، ولأمّه ابنًا بارًا، وأعطى الفردوس للص اليمين. ومع أن الإنسان في شدة آلامه قد يكتفي بالصمت المطبق عندما يكون نبيلًا ومُحتمِلًا فقد تمنعه المرارة من الكلام، ولكن الرب كان قويًا، ولم يتوقّف عن النُبل، ولم يتوقّف عن كلام التشجيع.

بل أن الذين رافقوه حتى الصليب كانوا الضغفاء: سواء المريمات أو يوحنا، وواجهوا المناظر الصعبة. وكيف احتملت السيدة العذراء ذلك؟ "حقًا لقد التهبت أحشـــاؤها عليه"، كيف تراه في هذا الضـــعف وهو خالق الكل؟ "أمّا العام فيفرح لقبوله الخلاص، وأمّا أحشـــائي فتلتهب عند نظري إلى صلبوتك الذي أنت صابر عليه من أجل الكل..."

لقد علّمنا السيد المسيح من خلال آلامه النفسية أن نحتمل نحن كما احتمل هو، فقد أعطى درسًـا عمليًا في احتمال الآلام الجسدية والنفسية، وإشعياء النبي يقول عنه: «رَجُلُ أَوْجَاعٍ وَمُخْتَبِرُ الْحَزَنِ» (إشعياء٥٣: ٣).

أخيرًا... احتملوا الآلام من أجل الآخرين، ولا تدعوا الآخرين يحتملونكم ويتألمون بسببكم، فالكاهن ليس مطلوبًا منه وحده الاحتمال، فلا تنسوا أن الراعي يتأثّر ويتألم، ويؤثِّر ذلك بنسب مختلفة على نفسيته، وبالتالي على خدمته وصلواته واعترافاته، وبينما نطلب منه أن يحتمل نطلب منكم كذلك أن لا تثقّلوا عليهم، إن مشكلة ما يمكن أن تؤثّر على الأب الكاهن ليوم كامل أو اكثر، ويتأثّر تبعًا لذلك أناس كثيرون.

ومع كل ذلك فإن الشعور بالألم واحتماله أعظم من عدم التألّم أو عدم الشعور بالألم، وعندما نتألم نقول: «لأَنَّهُ في ما هو قد تألَّمَ مُجَرَّبًا يَقدِرُ أنْ يُعينَ المُجَرَّبينَ» (عبرانيين٢:١٨).

شق الثياب .. ماذا يعني؟

فقامَ رَئيسُ الكهنةِ وقالَ لهُ: «أما تُجيبُ بشَـيءٍ؟ ماذا يَشـهَدُ بهِ هذانِ علَيكَ؟». وأمّا يَسوعُ فكانَ ساكِتًا. فأجابَ رَئيسُ الكهنةِ وقالَ لهُ: «أستَحلِفُكَ باللهِ الحَيّ أنْ تقولَ لنا: هل أنتَ المَسيحُ ابنُ اللهِ؟». قالَ لهُ يَسوعُ: «أنتَ قُلتَ! وأيضًـا أقولُ لكُمْ: مِنَ الآنَ تُبصِرونَ ابنَ الإنسـانِ جالِسًـا عن يَمينِ القوّةِ، وآتيًا علَى سـحابِ السـماءِ». فمَزَّقَ رَئيسُ الكهنةِ حينَئذٍ ثيابَهُ قائلًا: «قد جَدَّفَ! ما حاجَتُنا بَعدُ إلَى شُهودٍ؟ ها قد سمِعتُمْ تجديفَهُ! ماذا ترَوْنَ؟». فأجابوا وقالوا: «إنَّهُ مُستَوْجِبُ الموتِ». (متى٢٦: ٦٢-٦٦).

فمَزَّقَ رَئيسُ الكهنةِ ثيابَهُ وقالَ: «ما حاجَتُنا بَعدُ إلَى شُهودٍ؟...»(مر١٤: ٦٣).

استمرت محاكمات المسيح الدينية طوال ليلة الجمعة، ووجد رؤساء اليهود أنفسهم في مازق، وحتى شهود الزور الذين دبّروهم لتلفيق التهمة لم يتفقا! والشهادة التي قدمها الشاهدان الأخيران كانت ساذجة، وأراد رئيس الكهنة سماع تعليقه، بما لا علاقة له بموضوع الشهادة: «هل أنتَ المَسيحُ ابنُ اللهِ؟»، وهنا قدم يسوع الشهادة ومن فم رئيس الكهنة نفسه، ليُصدَم

الأخير وكأنه فقد صـــوابه، ويصـــف بعض الشـــراح انفعال رئيس الكهنة وتمزيقه الثياب، بأنها حركة بهلوانية أو نوع من الفزع الهيستيري المُصطَنَع، على الرغم من أنه كان ممنوعًا على رئيس الكهنة عمل ذلك، حســـبما ورد في سفر اللاويين: «والكاهِنُ الأعظَمُ بَينَ إخوَتِهِ الّذي صُبَّ علَى رأسِهِ دُهنُ المَســحَةِ، ومُلِئَتْ يَدُهُ ليَلبَسَ الثّيابَ، لا يَكشِـفُ رأسَـهُ، ولا يَشُـقُّ ثيابَهُ» (لاويين٢١:١٠)، يقصـــد عند الحزن أو أي ســـبب آخر. وهنا كان قيافا يغطّي موقفه الضعيف، وإفلاس محكمته التي نصبها للمسيح.

ولكنه، وبدون قصـــد أيضًـــا، كان ذلك علامة نزع الكهنوت اللاوي وانتهائه، فيظهر كهنوت جديد على طقس ملكي صـــادق. مثلما تنبأ دون قصد عن أن المسيح سيموت عن الأمة كلها: «... ولا تُفَكِّرونَ أنَّهُ خَيرٌ لنا أنْ يَموتَ إنسـانٌ واحِدٌ عن الشَّـعبِ ولا تهلِكَ الأُمَّةُ كُلُّها!. ولَمْ يَقُلْ هذا مِنْ نَفسِهِ، بل إذ كانَ رَئيسًا للكهنةِ في تِلكَ السَّنَةِ، تنَبَّأَ أنَّ يَسوعَ مُزمِعٌ أنْ يَموتَ عن الأُمَّةِ» (يوحنا١١:٥٠،٥١). ذكّرني ذلك بالشياطين التي كانت تصرخ رغمًا عنها معترفة بالمسيح الإله: «وكانتْ شَياطينُ أيضًا تخرُجُ مِنْ كثيرينَ وهي تصـرُخُ وتَقولُ: "أنتَ المَسيحُ ابنُ اللهِ!". فانتَهَرَهُمْ ولَمْ يَدَعهُمْ يتَكلَّمونَ، لأنَّهُمْ عَرَفوهُ أنَّهُ المَســـيحُ» (لوقا٤:٤١). ويذكر الكاتب الإنجليزي ألفريد إدرزهايم أن الذي تمزق هو الثياب الخارجية والداخلية معًا، مما لا يمكن إصلاحه مطلقًا!

ونقرأ في سفر الملوك الثاني: «فلَمّا قَرأَ مَلِكُ إسرائيلَ الكِتابَ مَزَّقَ ثيابَهُ وقالَ: "هل أنا اللهُ لكَيْ أُميتَ وأُحييَ، حتَّى إنَّ هذا يُرسِلُ إلَيَّ أنْ أشفيَ رَجُلًا مِنْ بَرَصِهِ؟ فاعلَموا وانظُروا أنَّهُ إنَّما يتَعَرَّضُ لي". ولَمّا سمِعَ أليشَعُ رَجُلُ اللهِ أنَّ مَلِكَ إسرائيلَ قد مَزَّقَ ثيابَهُ، أرسَلَ إلَى المَلِكِ يقولُ: "لماذا مَزَّقتَ ثيابَكَ؟ ليأتِ إلَيَّ فيَعلَمَ أنَّهُ يوجَدُ نَبيٌّ في إسرائيلَ".» (٢ملوك٥:٧، ٨). ولكن الفرق هنا أن الملك اتضع قدام الله ولم ينسب لنفسه صفات الألوهة، بينما قيافا هنا يحارب الله، وإن كان يبدو كمن يقضي لله دفاعًا عنه! وأتخيل كيف أن السيد المسيح يتعجب من شخص يثور عليه لأجل الله، دون أن يعرف أنه هو الله، وأن القضية تخصّ من يقف أمامه بالدرجة الأولى، وهو الذي يعرف كل شيء.

وفي التقليد الشعبي تتردد عبارات من قبيل: "أطلع من هدومي" في إشارة إلى الكفر بالشيء، أو للإشارة إلى الخروج من الدين. وكان تمزيق الثياب في العهد القديم يشير إلى الحزن الشديد وسماع الأهوال، فعندما سمع عبيد الملك كلام ربشاقي مزقوا ثيابهم، وعندما رووا للملك ما حدث مزق هو أيضًا ثيابه: «فلَمّا سمِعَ المَلِكُ حَزَقيّا ذلكَ، مَزَّقَ ثيابَهُ وتَغَطَّى بمِسحٍ ودَخَلَ بَيتَ الرَّبِّ» (٢ملوك ١٩:١). وكذلك يفتاح الجلعادي عندما اكتشف أن التي خرجت لاستقباله كانت ابنته الوحيدة، وكان قد نذر أن الذي يخرج لاستقباله سوف يقدمه ذبيحة للرب: «وكانَ لَمّا رآها أنَّهُ مَزَّقَ ثيابَهُ وقالَ: "آهِ يا بنتي! قد أحزَنتِني حُزنًا وصِرتِ بَينَ مُكَدِّريَّ، لأنّي قد

فتحتُ فمي إلَى الرَّبِّ ولا يُمكِنُني الرُّجوعُ".» (قضاة١١: ٣٥)، وكذلك عند سماع الأهوال مثلما حدث في مجاعة السامرة حين شكت امرأة من أنها اتفقت مع جارتها على أكل ابنيهما الواحد تلو الآخر، فلما جاء دور الجارة رفضت: «فلَمّا سمِعَ المَلِكُ كلامَ المَرأةِ مَزَّقَ ثيابَهُ وهو مُجتازٌ علَى السّورِ، فنَظَرَ الشَّعبُ وإذا مِسحٌ مِنْ داخِلٍ علَى جَسَدِهِ» (٢ملوك٦: ٣٠).

وكما يشير تمزيق الثياب إلى نزع الكهنوت، يشير أيضًا إلى تمزيق المملكة ونزع المُلك، فعندما مزّق صموئيل جُبّة شاول كان نذيرًا لتمزُّق المملكة عنه: «ودارَ صَموئيلُ ليَمضيَ، فأمسَكَ بذَيلِ جُبَّتِهِ فانمزَقَ» (١صم١٥: ٢٧)، وكذلك عندما أمر أخيا الشيلوني يربعام بتمزيق الجبة اثنتي عشرة قطعة، في نبوءة عن انقسام المملكة بعد سليمان (١ملوك١١: ٢٩-٣٢).

هناك معنى آخر لشقّ الثياب وهو نزع الرتبة عن الشخص، مثل رفع الرتب عن كتف الضابط، أو شلح الثياب الكهنوتية عن كاهن مخالف أو هرطوقي، حيث كان الثوب يُشَقّ من الخلف في حضور الجمع ومن ثَمّ يُقال: شقّ عنه ثياب كذا، وكان الأمر يصل أحيانًا إلى حرق الثياب، فقد كان الجندي الكسلان أو الذي وُجِد نائمًا في نوبة خدمته يحاكم في اليوم التالي علنًا وتُنزَع رتبته، ويخلع ثيابه لتُحرَق أمام الجمع ليكون عبرة لآخرين، ولعلّ هذا هو معنى «احفظ ثيابك... احرس ثيابك...» والتي

وردت في سفر الرؤيا (رؤيا ١٦:١٥)، وهناك إشارة إلى مثل ذلك في حديث الرب يسوع عن السهر والوكيل الأمين، فقد صرح بأن السيد الذي يأتي فيكتشف أن "الوكيل" الذي تركه على عبيده (يقصد الراعي بشكل عام الذي اؤتمن على الرعية لتأمين احتياجاتها)، ووجده لم يفعل ذلك، فإنه يشقّه (ربما يشقّ صفته الرعوية) ويجعل نصيبه مع عديمي الايمان (لوقا ١٢:٤٦).

وشق الثياب قد يعني أيضًا في المقابل تخلُّص شخص من عبء ما بنفسه وليس إقصاءً من آخرين، مثل أن يُقال إن فلانًا "شقّ عصا الطاعة" أو "شقّ عصا العبودية"، حين ثار ورفض الاستمرار في المذلة، ويمكن ملاحظة ذلك عندما يخلع عاملٌ ثياب العمل ويلقيها عنه كمن يتحرر من ربقة سيده ونير العمل.

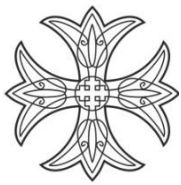

لغتك تظهرك

وبَعدَ قَليلٍ جاءَ القيامُ وقالوا لبُطرُسَ: «حَقًّا أنتَ أيضًا مِنهُمْ، فإنَّ لُغَتَكَ تُظهِرُكَ!» (متى٢٦:٧٣).

تُعتَبَر اللغة هي الوجه التعبيري لدى الإنسان، بمعنى أن الإنسان دائمًا ما يعبّر عن نفسه من خلال لغته في صورة كلمات، وهو وحده دون سائر المخلوقات القادر على ترجمة أفكاره ومشاعره إلى ألفاظ وعبارات مفهومة للمجتمع الذي يعيش فيه، واللغة مظهر من مظاهر السلوك الإنساني والحضاري، بمعنى أنه إن أردتَ أن تعرف إنسانًا ما وطريقة سلوكه وفكره، يمكنك التعرُّف عليه من خلال لغته ومصطلحاته التي ينطق بها!

واللغة هي مفتاح الشخصية الرئيسي، لأننا لا نقدر أن نعرف إنسانًا ما، إلا من خلال لغته التي يتحدث بها وتعبيراته التي ينطقها والتي تعكس شخصيته؛ فبأي لغة نتكلم وبأية طريقة نتحدث؟! واللغة والألفاظ تلقائية عفوية، تخرج من فم الإنسان لتعبّر عن شخصيته؛ كلامك يدلّ عليك، يظهر شخصيتك، يكشف ما في داخلك «لأَنَّكَ بكلامِكَ تتبَرَّرُ وبكلامِكَ تُدانُ» (متى ١٢:٣٧).

واللغة تعني الأسلوب الذي نتعامل به وليس المفردات التي نستخدمها فقط، ولذلك يُقال إن المال هو لغة تعامل فلان، والمكر هو لغة تعامل فلان، والنُبل هو لغة فلان وهكذا..

وقد تحاشى القديس بطرس الكلام ما أمكنه إلى ذلك سبيلًا، حتى لا يُكتَشَف من خلال اللغة، وبالتالي يُحاكَم كأحد تلاميذ الناصري، ويبدو أن لغة الجليليين على وجه الخصوص كان لا يمكن أن يخطئها يهودي (مثل لهجات بعض البلاد عندنا). ويبدو لي أن الجارية ربما شكّت فيه بسبب ملامحه أو ثيابه، فحسبما نعرف فهناك اختلافات في الثياب بين منطقة وأخرى، مثل ثياب الريفيات البسيطات وسيدات المدن، وبين السودانيين والدول الأخرى، وبين بحري وقبلي عندنا في مصر (بل كانت لدينا لهجات قبطية متعددة: ما بين الصعيدي والبحيري والأخميمي والفيومي وغيرها)، ومن ثَمّ عندما دافع القديس بطرس بأنه ليس جليليًا كشفته اللغة "ولم يكن قد تكلم بعد"!

كان اليهود يتكلمون جميعًا اللغة الآرامية والتي تعلموها في السبي، بينما كان المثقفون والحريصون منهم يتكلمون العبرانية أيضًا مع الأرامية، غير أنه وحتى الآرامية التي يتكلم بها جميع اليهود لم تكن لها لهجة واحدة وإنما عدة لهجات، مثلما هو الحال عندنا في العالم العربي لدرجة أنك لا تستطيع تفسير بعض اللهجات، وكذلك الحال في مصر ما بين الصعيد ووجه بحري، والإسكندرية خاصة، والنوبة، والمدن الساحلية وغيرها. ومن

هنا تعرّفت الجارية عليه. وكذلك الذين معها: «حَقًّا أنتَ مِنهُمْ، لأنَّكَ جَليليٌّ أيضًا ولُغَتُكَ تُشبِهُ لُغَتَهُمْ!» (مرقس١٤: ٧٠؛ لوقا٢٢: ٥٩).

اللغة التي تكلم بها الرب يسوع:

وقد تكلم الرب يسوع الآرامية هو وتلاميذه، ونلاحظ في إقامة ابنة يايرس من الموت أن المسيح نادى عليها باللغة الآرامية: «طليتا قومي» الذي تفسيره «يا صبية لكِ أقول قومي»، فالعبارة «طليتا قومي» هي آرامية. والآرامية هي اللغة التي تُسمّى اليوم السريانية. فالآرامية نسبة إلى آرام بن سام بن نوح، والسريانية نسبة إلى سوريا. فالآرامية تسمية اسمية، والسريانية تسمية جغرافية.

هذه اللغة الآرامية كانت اللغة الشائعة في فلسطين، وخاصة في الجليل في زمن المسيح، وبها تكلم المسيح ووالدته العذراء والرسل وكافة شعب ذلك الزمن. وسادت في بيت لحم والناصرة والقدس وقانا وصور وغور الأردن، وفي سوريا يوجد حتى يومنا هذا ثلاث قرى تتكلم اللهجة النبطية أي اللهجة الآرامية الفلسطينية التي تكلم بها السيد المسيح: (بخعة – جبعدين – معلولا).

فحين نُفِي يهود الجليل وفلسطين إلى بابل وآشور على دفعتين في القرنين الثامن والسادس ق.م. واستمروا إلى ما بعد أمر كورش بالعودة،

صـاروا يتكلمون اللغة الآرامية حسـب لهجتها التي كانت سـائدة في ما بين النهرين، وعادوا بها إلى فلسطين.

أمّا يهود الجليل تحديدًا – وهي المنطقة التي عاش فيها المسـيح هو وتلاميذه – فقد تغلّبت على لغتهم الآرامية اللهجة اللبنانية الصـرفة، لانهم بعد عودتهم من سـبي بابل (وقبلها) كانوا يعيشـون مختلطين مع الفينيقيين، وبسبب هذا الاختلاط وبسبب تفوُّق الفينيقيين على اليهود حضـاريًا، تغلّبت على يهود الجليل اللهجة الآرامية اللبنانية. لذلك اختلفت لهجة يهود الجليل إلى حدٍّ ما عن لهجة يهود القدس وفلسـطين الجنوبية، وكانت لهجتهم تثير بعض السـخرية ويتندرون بها، بل أنه لم يكن مسـموحًا ليهودي جليلي بأن ينطق بالبركة في ختام الخدمة في المجمع اليهودي!

وكان ما يميّز لغة الجليليين إلى جوار صـبغتها الآرامية سـواء في المفردات أو تراكيب الجمل أو نطق الكلمات، وإنما في اللكنة أيضـا. واستخدام الجليليين للآرامية لا يبدو في كلامهم فحسب، بل يبدو أنهم كانوا يسـتخدمون الترجمة الآرامية للعهد القديم، كما يظهر ذلك في لغة الرسـل واقتباسـاتهم. وبعد أن قضـت روما على الدولة اليهودية في ٧٠م، هرب كثيرون من اليهود ومن المسـيحيين اليهود من أورشـليم إلى الجليل، حتى أصبحت الجليل هي مركز الثقافة اليهودية.

يتّضـــح ذلك من حديث الجارية ومن معها مع القديس بطرس، إذ قالوا لـه: "في الحقيقة أنت أيضًـــا منهم، فإن لهجتك تدل عليك". هكذا كانت الآرامية اللبنانية لغة المســيح. وقد ورد في الكتاب المقدس عدة عبارات من هذه اللغة كما نطق بها المســـيح، مثل: توما، وبارباس، وبرنابا، ومرتا، وبيت عنيا، وبيت حســـدا، وحَقَل دما، وربّوني، مما يدل على أنـه كـان يسـتخدم لغة الجليليين في أحاديثه، كما اسـتخدم لفظة: «كيفا» اللقب الذي أطلقه الرب على ســـمعان (هي ذاتها اللفظة التي دُعيت بها باللغة اللبنانية الأصـلية أماكن وقرى مثل راس كيفا في لبنان الشـمالي ودير كيفا في لبنان الجنوبي)، وقول المســـيح للأعمى «اقّثا» أي أبصـــر، وصـــراخه على الصليب: «إيلي ايلي لَمَا شبقتاني».

نوعٌ آخر من اللغات:

وهو أســلوب التعبير، فالمســيحي له لغته، ليس فقط من جهة اختياره تعبيرات كتابية أو كنسـية، وإنما أيضًـا كلامه المُملَّح بالروح القدس. يمكنك اكتشاف شخص مسيحي وشخص كنسي من خلال عباراته وكلماته، هناك من يقول لك: جناب القســيس أو قدس أبونا، فلان تنيح أو فلان توفاه الله، الفرح أو الإكليل. وفي الأديرة يســـلمون الراهب الجديد اللغة الرهبانية أو اللغة الديرية: أخطأت أنا، الله يعوضك.. وهكذا..

وهناك أيضًا لغة الجسد، وهو علم يُدرَّس *Body Language* ويبحث استخدام حركة الجسد وبعض الملامح في التعبير، والتي تؤثّر بشكل أو بآخر على المعاني والكلام، وقد ترسل رسائل دونما كلام محدد، أو ألفاظ معينة.

إذًا لغة الإنسان تظهر في: التعبيرات، الحركة الجسدية، طريقة الكلام، منهج الكلام، أو أسلوب الحياة، فيُقال إن لغة تعامل فلان هي كذا... هل يمكن أن يُستَدَل على مسيحيتك من خلال لغتك؟ إذا تكلمتَ دون أن يراك الذي يسمعك هل بإمكانه أن يدرك على الفور أنك مسيحي، أو على الأقل أنك شخص مختلف؟ في الأفلام التي يقدمونها الآن ويحاولون فيها إدماج الأقباط، يظهرون المسيحيين مسالمين لطفاء، ويستخدمون عبارات راقية مثل "يعوض تعب محبتك" كتعبير أرثوذكسي أو "السلام للممتلئة نعمة" وغيرها، لتشعر وأنت تسمعها أن المقصود هو شخص مسيحي.

إذا عدنا للقديس بطرس نجد أنه لم يهرب ولكنه تحاشي الكلام، وعندما ووجه أنكر، ولما تم تضييق الخناق عليه من آخرين لعن (لعن نفسه غالبًا أنه وضع ذاته في هذا الموقف)؛ ولكنه بكى بمرارة وقبل الله توبته وأعاده لرتبته، عندما قال له: «ارعَ خرافي...».

يسوع الشاب النبيل

سلك السيد المسيح كشاب كما يسلك النبلاء ومن يجري في عروقهم الدم الملكي، وبينما كان أثناء خدمته يوبخ وينتهر ويدافع عن الحقوق ويستر الخطايا، تحنن على الأبرص ونازفة الدم والمقعد والأعمى، وتلطّف بزكا والخاطئة ساكبة الطيب، وتلك التي أُمسِكت في ذات الفعل، بينما احترم القيصر وحقوقه ولم يمسّه: «أعطوا ما لقَيصَرَ لقَيصَرَ» (مرقس١٢: ١٧)، واحترم الكهنة وخدمتهم: «... اذهَبْ أرِ نَفسَكَ للكاهِنِ...» (متى٨: ٤)، واحترم بيلاطس وعمله، وهيرودس رغم سخريته منه، وغيرهم... ولكنه في آلامه وعذاباته، لا يدافع ولا يتكلم، إلّا فقط بما سُمِّي اصطلاحا بـ"الاعتراف الحسن أمام بيلاطس البنطي"، وعندما اشتدّ به الألم اتجه إلى الآب وليس الحكام الأرضيين: «إلهي إلهي لماذا تركتني؟... يا أبتاه في يديك استودع روحي». ويقول القديس بولس: «الّذي -في أيّامِ جَسَدِهِ- إذ قَدَّمَ بصُراخٍ شَديدٍ ودُموعٍ طَلِباتٍ وتَضَرُّعاتٍ للقادِرِ أنْ يُخَلِّصَهُ مِنَ الموتِ، وسُمِعَ لهُ مِنْ أجلِ تقواهُ» (عبرانيين٥: ٧)... الخ.

وعندما وصــفه بيلاطس لطيباريوس قيصــر، جاء وصــفه يؤكد ذلك، ليس من جهة ملامحه فقط وإنما من جهة هيئته ورصانته وشدة تأثيره، وفي التقرير الذي كتبه بيلاطس عنه ورد:

"... وهو إنسان بقوام معتدل ذو منظر جميل للغاية، له هيبة بهية جدًا حتى من نظر إليه يلتزم أن يحبه ويخافه... وأمّا منظره فهو رائق وعيناه كأشعة الشمس، ولا يمكن لإنسان أن يحدق النظر في وجهه نظرًا لطلعة ضيائه. فحينما يوبّخ يرهب ومتى أرشد أبكى، ويجتذب الناس إلى محبته. تراه فرحًا وقد قيل عنه إنه ما نُظِر قط ضاحكًا بل بالحرى باكيًا... ثم أنه من جهة العلوم أذهل مدينة أورشليم بأسرها، لأنه يفهم كافة العلوم بدون أن يدرس شيئًا منها البتة! ويمشي حافيًا عريان الرأس نظير المجانين، فكثيرون إذ يرونه يهزأون به، لكن بحضرته والتكلم معه يرجف ويذهل. وقيل أنه لم يُسمَع قط عن مثل هذا الإنسان في التخوم."

ويظهر نبله في تركه لبيلاطس يحاكمه وهو الخالق والديان، ومعروف أن الآلام الشديدة تفقد الإنسان رشده ووقاره أحيانًا، لا سيما آلام الصلب فالمصلوب عادة يخرج عن شعوره فيسبّ ويلعن، وهو ما حدث مع اللصين اللذين صلبا معه، وكذلك جميع الذين سيقوا الى الموت، لاسيما الموت البطيء كالصلب وغيره، ولكن السيد المسيح كان كريم النفس، وله عدة مواقف مع الذين كانوا حوله، مثل العبد الذي لطمه حين عاتبه برفق، ومع

رؤساء الكهنة حين احترم كهنوتهم، ومع بيلاطس ومع الجنود الذي تسلّوا عليه دون أن يعاتبهم بكلمة، ومع يوحنا ومريم حين سلّم كلًّا منهما للآخر، والنسوة اللاتي تبعنه يبكين فطلب إليهن أن يكففن عن البكاء عليه، وهكذا سلك مع الذين سلموه والذين حاكموه والذين نفذوا الحكم، تصوروا أن صرخة المحكوم عليه دائمًا هي: "أنا مظلوم"... "تبًّا لكم" الخ، بل أصيب كثيرون بالجنون وصدر عنهم ما لا يليق، وقيل عن أغسطس قيصر والذي مات بين جنوده بنوبة إسهال، أنه أظهر في موته من ضبط النفس ما أظهره في حياته.

وورد في الوثائق التاريخية أن بيلاطس بعدما وشى قيافا بالمسيح وأوعز إليه بضرورة التخلص منه من أجل سلام الأمة، بل وحصل منه على قرار مسبق بقتله في الصباح، كان بيلاطس يتوقع أن يقدموا إليه شابًا مجرمًا عنيفًا ناقمًا ثائرًا، تظهر عليه علامات الجريمة، غير أنه فوجئ بشاب نبيل وسيم واثق هادئ، لدرجة أنه خاف منه، وقرّر من ثَمّ إعادة نظر القضية من بدايتها مما أثار رؤساء الكهنة، وأثناء المحاكمة أقرّ بأكثر من عبارة أن الشاب لا يستحق الموت.

بل أن المسيح كان بإمكانه أن يدافع عن نفسه بل وأن يبيدهم بنفخه فيه وأن يفضح أعمال أعدائه، ولكنه لم يفعل، بعكس الذين بإمكانهم التوسل والدفاع واللجوء إلى الوساطة ودفع الرشاوى، واستخدام النفوذ.

كان لابد وأن يترك المسيح مثالًا لتلاميذه ولكل أتباعه، كيف نواجه الإهانات والتعيير والألم، وكيف يواجهون الذين يسلمونهم والذين يحاكمونهم والذين ينفذون الأحكام، ومن ثَمّ وبسبب سلوك الشهداء أمام مضطهديهم، قدم الكثيرون توبة وأحبوا المسيح، وقال القديس بولس لاحقًا إنه يود أن يكمل نقائص شدائد المسيح في جسده، أي أنه ينقصه الكثير ليتألم كما تألم السيد المسيح.

هكذا سلمنا السيد المسيح كيف نكون أصحاب مبادئ، وألّا نتخلى عن مبادئنا متى ازدادت وطأة الألم علينا، فلم يتراجع المسيح عن موقفه بل لم يدافع عن نفسه، وإنما قال إنه لم يقل شيئًا في الخفاء، بل كان يعلّم كل يوم جهارًا في الهيكل، بينما التزم الصمت خلال المحاكمات سواء المدنية أو الدينية، مما أثار بيلاطس الذي كان مستعدًا أن يطلق سراحه، ولكن المسيح لم يرد الاستفادة من الميزة، كان صاحب مبدأ وصاحب قضية وصرّح قائلًا: «لهذا أتيت».

كما أن ردود الأفعال سواء أكانت مواقف أو كلمات تبقى وتخلد، والناس قد لا يهتمون ماذا قال المخالفون وماذا فعلوا، ولكنهم يهتمون جدًا برد فعل النبلاء والرؤساء، مثل شخص يستمرّ في إهانته لك كثيرًا فلا يُحسَب عليه إذا كان سفيهًا، وإنما يحسب كثيرًا على النبيل أن يتفوه بما لا يليق بمركزه بين الناس، حتى المتطاولون فإنهم يترقبون بماذا يرد عليهم النبلاء.

قرأت كثيرًا عن الشرفاء الذين تقدموا نحو الموت بشجاعة وضبط نفس وشموخ، وكانوا في موتهم أرقى وأنبل مما ظهروا في مجدهم وسلطانهم، فإن الألم والتعيير ولاسيما الموت، يكشف إلى أيّ مدى صدق الشخص وإيمانه ومبادئه. في حين يموت البعض الآخر قبل أن يُسلَّموا إلى آلة الموت، بسبب الرعب واليأس وعدم استطاعتهم مواجهة الموت.

كثيرون يتماسكون طالما كان هناك من يثني عليهم ويشجعهم، ولكن ما أن يفقدوا أولئك أو يشعرون بتخليهم، حتى يتهاوون ويعجلون بنهايتهم، مثل الذين ينتحرون في السجون قبل تنفيذ الأحكام فيهم. وقرأنا في الآونة الأخيرة كيف تخلى الكثير من الرموز عن وقارهم ومبادئهم، وناقضوا –وهم تحت وطأة الحبس والخوف من العقاب والسجن والفضيحة–ما كانوا يقولونه.

هذا شجّع الشهداء أن يسلكوا ذات المسلك في النبل في الحوار مع الولاة والملوك، وكيف سلكوا حتى اللحظة الأخيرة بما يليق بهم كتلاميذ المسيح، وصار مشهد المسيح واقفًا ليُحاكَم هو النموذج لكل مسيحي يُحاكَم من أهل العالم، بنفس رباطة الجأش والتهذُّب والرقي والثبات على المبدأ، لقد قال أحدهم: "إنني سأموت في النهاية، وبالتالي فلأموتن على المبدأ وأترك مثالًا يُحتذى به."

وهكذا يجب أن يحيا الإنســان رجلًا ويموت رجلًا، أعرف أن الشــرفاء والجنود إذا أُطلِقَ عليهم الرصـــاص يجتهدون أن يقعوا على ظهورهم وليس على بطونهم مثل الخونة أو الجبناء، وأتذكر أن البابا شـــنوده فارق الحياة قويًا نبيلًا متماسكًا، بالرغم من الآلام المُبرِحة التي كان يُعانيها.

دم هذا البار...

فَلَمَّا رَأَى بِيلاَطُسُ أَنَّهُ لاَ يَنْفَعُ شَـــيْئًا، بَلْ بِالْحَرِيِّ يَحْدُثُ شَـــغَبٌ، أَخَذَ مَاءً وَغَسَـــلَ يَدَيْهِ قُدَّامَ الْجَمْعِ قَائِلًا:«إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ دَمِ هذَا الْبَارِّ! أَبْصِرُوا أَنْتُمْ!».فَأَجَابَ جَمِيعُ الشَّـــعْب وَقَـالُوا:«دَمُـهُ عَلَيْنَـا وَعَلَى أَوْلاَدِنَـا» (متى٢٧: ٢٤، ٢٥).

حاول بيلاطس إطلاق سراح المسيح حوالي ثماني مرات:

فصـــرّح ذات مرة أنه لم يجد شـــكاية عليه (يوحنا ١٨:٢٩) – ومرة أخرى: لســـت أجد علة في هذا الانســـان (لوقا ٢٣:٤) – ثم طلب إليهم: خذوه وحاكموه حســـب ناموســـكم (يوحنا ١٨:٣١) – واســـتعطفهم مرتين الأولى بقوله: أنا أجلده وأطلقه (لوقا ٢٣:١٦) والثانية بعد الجلد عندما عرضـــه عليهم: «هوذا الإنســـانُ!» (يوحنا ١٩:٥) – ثم عرض صـــفقة إطلاق يسوع وصلب باراباس – ثم إرساله إلى هيرودس ليتخلّص من هذه المعاناة (لوقا٢٣:٧) – ثم توسل للسيد المسيح أن يجاوبه لأن بيده إطلاق سراحه أو صلبه (يوحنا ١٩:١٠).

وفي النهاية رأي «أَنَّهُ لا يَنفَعُ شَيئًا» (مفيش نتيجة من الكلام والنقاش! متى ٢٧:٢٤)، كانت القوة الجامحة لليهود المتعطشين للدماء أقوى من منطق الرجل وسلطانه، ومن جهته حاول بيلاطس عمل الاثنين: تلبية المطالب وتبرئة نفسه، كمثل من يرتكب خطيئة غير راضٍ عنها، فلما اُضطُرّ أن يُصدِر الحكم عليه صاغرًا: «أَخَذَ مَاءً وَغَسَلَ يَدَيْهِ قُدَّامَ الْجَمْعِ» (متى ٢٧:٢٤).

ولكن ماذا يعني غسل اليدين؟

هو إجراء يعني التحلُّل من تبعة الأمر، كما يعنى أيضًا أنه فعل ما عليه ولكن الأمر خرج من بين يديه، وقد أعلن بيلاطس في غسل يديه أن المسيح "بار" إذ أعلن جهارًا: «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ دَمِ هَذَا الْبَارِّ» (متى٢٧:٢٤)، وليعلن أيضًا أنه بحسب العدالة الرومانية فإنه بريء، أمّا وأنه سيُصلَب فهذه هي خطية اليهود[1].

إن إعلان بيلاطس أنه بريء من دم المسيح يوضع بالتوازي إلى جوار قوله: «أبصروا أنتم» (متى٢٧:٤)!!

وبذلك يعلن أنه غير مقتنع بما آلت إليه محاكمة المسيح، ولكنه نزولًا على رغبتهم المحمومة وافق، بحيث تقع المسئولية عليهم، حيث كان

[1] ويذكر يوسيفوس أن حاكمًا لاحقًا تقابل مع شخص اسمه يسوع، تنبأ كثيرًا عن الخراب والدمار الوشيك، وقد أدانته السلطات اليهودية، ومن ثَمّ قرّر الحاكم أنه مختل في قواه العقلية حتى يطلق سراحه.

بيلاطس وثنيًا وليس يهوديًا ولم يكن متدينًا، وبالتالي فهو لا تهمه قضية المسيح كمخلص كثيرًا، وقد تصرّف بما يتناسب مع ذلك، فحاول تخليص المسيح في حين حرص على مكانته هو. ولكنه أخطأ حين لم يقم العدالة الرومانية.

وغسل الأيدى في مثل تلك الحالات، هو إجراء رمزي وُجد بين اليهود والوثنيين على السواء، وإزالة آثار الدم المسفوك كان موضع اهتمام من الكتابات الوثنية مثل اليهودية.

ونقرأ في سفر التثنية «وَيَغْسِلُ جَمِيعُ شُيُوخِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ الْقَرِيبِينَ مِنَ الْقَتِيلِ أَيْدِيَهُمْ عَلَى الْعِجْلَةِ الْمَكْسُورَةِ الْعُنُقُ فِي الْوَادِي، وَيُصَرِّحُونَ وَيَقُولُونَ: أَيْدِينَا لَمْ تَسْفِكْ هذَا الدَّمَ، وَأَعْيُنُنَا لَمْ تُبْصِرْ. اِغْفِرْ لِشَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ الَّذِي فَدَيْتَ يَا رَبُّ، وَلاَ تَجْعَلْ دَمَ بَرِيءٍ فِي وَسَطِ شَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ. فَيُغْفَرُ لَهُمُ الدَّمُ. فَتَنْزِعُ الدَّمَ الْبَرِيءَ مِنْ وَسَطِكَ إِذَا عَمِلْتَ الصَّالِحَ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ» (تث٢١: ٦-٩).

ونقرأ كذلك عن قتل أبنير بن نير: «فَسَمِعَ دَاوُدُ بَعْدَ ذلِكَ فَقَالَ: إِنِّي بَرِيءٌ أَنَا وَمَمْلَكَتِي لَدَى الرَّبِّ إِلَى الأَبَدِ مِنْ دَمِ أَبْنَيْرَ بْنِ نَيْرٍ. فَلْيَحُلَّ عَلَى رَأْسِ يُوآبَ وَعَلَى كُلِّ بَيْتِ أَبِيهِ» (٢صموئيل٣:٢٨).

لقد عانى بيلاطس كثيرًا بعد قرار الصلب، إذ شعر أنه قد دفع حياة يسوع كإتاوة كبيرة لليهود!!! ويقول التقليد أنه بعد أن مضى إلى قصره رأى

دمًا في يديه! فقام لوقته وغسل يديه، وإذا بالدم يعود أيضًا إليهما، فيصرخ بيلاطس من جديد وهو يغسلهما: "أنا بريء من دم هذا البار".

ويذكر يوسابيوس القيصري المؤرخ أن بيلاطس صرف سني حياته الأخيرة في شقوق الجبل الواقع بجوار بحيرة (لوسرن) ويُسمّى الآن جبل بيلاطس، وأنه أخيرًا غرّق نفسه في البحيرة، وقال تقليد قديم أن شبحًا كان يخرج من الماء، أحيانًا يظهر وهو يغسل يديه!! وتفيد أسطورة أخرى أنه كان يخرج من القبر ليغسل يديه مرة بعد الأخرى! (راجع كتابنا "بيلاطس البنطي").

وبالرغم من أن بيلاطس البنطي كان أحد الضباط المغمورين، إلّا أن اسمه قد صار الأشهر في التاريخ الروماني ولكن من باب الجبن والخوف، لاسيما مشهد "غسل الأيدي"، فهو منظر يفرض نفسه مثل خيط أحمر في تاريخ الفن، حيث وُجِدت لوحات كثيرة تصوّره وهو يغسل يديه، بل أصبحت هذه اللوحات وحدها تعبّر عن موقف الرومان من صلب المسيح.

أبدى بيلاطس اعتذاره... وهو بقراره صلب المسيح، يثير الشفقة أكثر من الاحتقار.

إنها مأساة بيلاطس...

ولكن للأسف فإن هناك أمورًا لا يجدي فيها الاعتذار نفعًا، وماذا يفيد الاعتذار على قبر ميت قتلته، أو ظلمته؟! وماذا يفيد اعتذار أمٍّ أساءت إلى أولادها ودمّرتهم، أو رئيس ظلم، أو قاضي حكم على مظلوم بالإعدام؟.. إن المسئولية لا تمحوها المياه.. ولا يمكن أن تضيع مع الوقت، والحل الوحيد هو التوبة واعتراف الإنسان بالجُرم الذي اقترفه.

العجيب أن اليهود صرخوا بصوت واحد: «دَمُهُ علَينا وعلَى أولادِنا» (متى٢٧:٢٥)، ولكن كيف يحكمون على أنفسهم بأن يحلّ عليهم غضب الله؟! إن إعلان اليهود ذلك معناه التصديق على ما قاله بيلاطس، من أنه عليهم تقع المسئولية، وأن روما قالت كلمتها. يبدو أنهم قد خافوا أن تفلت الفريسة من بين أيديهم... ومع ذلك فعندما قالوا: «دَمُهُ علَينا» كانوا كاذبين.. فمنذ متى يمكن للفقراء والمتسولين أن يضمنوا الآخرين ولا سيما الملوك؟! يا لهذه السخرية! لقد نسوا أنه قال لهم منذ زمن قريب: «يأتيَ علَيكُمْ كُلُّ دَمٍ زَكيٍّ سُفِكَ...» (متى٢٣:٣٥)، وأمّا هذا الدم فهو أثمن بما لا يُقاس.

ومنذ ذلك اليوم وما زال هذا الشعب يترنح تحت ضيق الأقليات، والمطاردة، ونزف الدم، والمذابح الجماعية، وستظل اللعنة تطاردهم حتى يقبلوا المسيح...

أخيرًا ربما من هذه الواقعة تعلّم الناس القول: غســـلتُ يدي من هذا الأمر، أي أخليتُ مســـئوليتي، أو تنحيتُ عن الاســـتمرار في الأمر، أو أعلنتُ برائتي من هذا الشخص.. الخ.

بنات أورشليم

وَتَبِعَهُ جُمْهُورٌ كَثِيرٌ مِنَ الشَّعْبِ، وَالنِّسَاءِ اللَّوَاتِي كُنَّ يَلْطِمْنَ أَيْضًا وَيَنُحْنَ عَلَيْهِ. فَالْتَفَتَ إِلَيْهِنَّ يَسُوعُ وَقَالَ:«يَا بَنَاتِ أُورُشَلِيمَ، لاَ تَبْكِينَ عَلَيَّ بَلِ ابْكِينَ عَلَى أَنْفُسِكُنَّ وَعَلَى أَوْلاَدِكُنَّ، لأَنَّهُ هُوَذَا أَيَّامٌ تَأْتِي يَقُولُونَ فِيهَا: طُوبَى لِلْعَوَاقِرِ وَالْبُطُونِ الَّتِي لَمْ تَلِدْ وَالثُّدِيِّ الَّتِي لَمْ تُرْضِعْ! حِينَئِذٍ يَبْتَدِئُونَ يَقُولُونَ لِلْجِبَالِ: اسْقُطِي عَلَيْنَا! وَلِلآكَامِ: غَطِّينَا! لأَنَّهُ إِنْ كَانُوا بِالْعُودِ الرَّطْبِ يَفْعَلُونَ هذَا، فَمَاذَا يَكُونُ بِالْيَابِسِ؟» (لوقا٢٣: ٢٧-٣١).

نقرأ كثيرًا كيف أحسنت النسوة إلى السيد المسيح، حملته مريم العذراء في بطنها وأرضعته واهتمت به في طفولته، وكانت أول من فتح عينيه بالجسد عليه، وآخر من رأته عيناه قبل أن يسلم الروح على الصليب. وتلقّفته أليصابات بجنينها الذي ارتكض بابتهاج في بطنها حالما دخلت العذراء وهي تحمل الطفل يسوع جنينًا في بطنها. وسالومي والتي شهدت ولادته المعجزية، كما خدمته حماة سمعان حين كان يزور البيت، ومريم ومرثا في بيت عنيا حيث كان يتردد على البيت ويبيت أحيانًا ويستضيفونه، والمجدلية مع أخريات كن يخدمن من أموالهن، ومريم أم مرقس في علية صهيون حيث كان يزورهم وحيث صنع الفصح وأسّس الإفخارستيا وغسل

الأرجل وظهر بعد القيامة. والمريمات اللائي كُنّ عند الصـــليب واللائي حضرن عند القبر. وكذلك تلك التي أكرمته والتي دُعِيت بساكبة الطيب.

وفي المقابل لم نقرأ عن سيدة واحدة أساءت إلى السيد المسيح، بعكس رجال وجماعات كثيرة!! بل كن يخدمنه من أموالهن، وعند المحاكمة والصـــلب تخلّى الرجال (ليس كلهم بالطبع)، خاصـــته نفســـها توارت: في بستان جثسيماني ناموا ولم يسهروا معه ساعة واحدة، أحدهم أنكر، والآخر خان، والباقون لم نرهم ولم نسمع عنهم، بما فيهم التلميذ الذي أقسم أنه وإن تركه الجميع فلن يفعل هو، وأنه مستعد للموت عنه، لم يظهر بعد الإنكار.

وقد يعتبر البعض أن تبعية النساء (سواء من الجليل أو أورشليم) له حتى الصـــليب كانت بدافع طبيعتهن الرقيقة، وأن الســـلطات لن تقيم لهن وزنًا ولن يعترضـــوا عن ســـيرهن في الموكب بعكس الرجال، ولكن الواقع أنهن أمينات مخلصات، كما أن السلطات كان يمكن أن تعاقب أي شخص يتعاطف مع المحكوم عليهم أو تقديم المساعدة لهم، باستثناء تقديم المرّ مع الخلّ لتخفيف آلام الصلب ولكن بإذن خاص.

هناك مجموعتان من النســـاء وُجِدتا في هذه الأحداث، الأولي: "بنات أورشـــليم" والثانية: "النســـاء اللائي كن من الجليل، وقد خرجن معه من الجليل في القافلة المباركة ـــ ولازمنه حتى الصليب": «وكانتْ هناكَ نِساءٌ كثيراتٌ يَنظُرنَ مِنْ بَعيدٍ، وهُنَّ كُنَّ قد تبِعنَ يَســـوعَ مِنَ الجَليلِ يَخدِمنَهُ،

وبَينَهُنَّ مَريَمُ المَجدَليَّةُ، ومَريَمُ أُمُّ يعقوبَ ويوسي، وأُمُّ ابنَيْ زَبدي» (متى٢٧: ٥٦،٥٥).

بنات أورشليم:

جاء ذكر بنات أورشليم في الطريق بين بوابة أورشليم وموضع الجلجثة، حيث كان المسيح يسير منهك القوى بين أربعة جنود، ويتقدم الكل جندي يحمل لافتة مُدوَّن عليها تهمة المسيح وسبب تقديمه للصلب، بينما حمل سمعان القيرواني الصليب عنه. وكان الجمع الكثير ما بين متأثر وصامت وباكٍ وشامت ومستهزئ.. ولكن بين كل هؤلاء: نسوة كثيرات شجاعات «وتَبِعَهُ جُمهورٌ كثيرٌ مِنَ الشَّعبِ، والنِّساءِ اللَّواتي كُنَّ يَلطِمنَ أيضًا ويَنُحنَ علَيهِ» (لوقا٢٣: ٢٧).

ويتضح لنا من المشهد أنهن اقتربن منه جدًا غير مبالين بالحراسة ودقّة الموقف ورهبته (لقد كُنّ يسرن إلى جوار كتيبة إعدام رومانية!!). إن مجرد تمثيل عملية إعدام بالكرسي الكهربائي في أمريكا أمام عائلة القتيل، كانت في غاية الإيلام النفسي، وكثيرون عولوجوا نفسيًا من جرّاء ذلك، فكم بالأحرى مشاهدة عملية إعدام حقيقية بالصلب؟!

المسيح يشفق عليهن:

في شـــدة آلام المســـيح ومهانته كان شـــجاعًا قويًا، لقد وهب الغفران لصـــالبيه، والفردوس للص اليمين، ووهب أمه ليوحنا ويوحنا لأمه.. لقد رفض أن يكون موضـع شفقة، بل استمر في أن يكون مصـدر شفقة وعطف.. مثلما يأتيك شـخص ما ليواسـيك، فتطلب أنت منه أن يهتم بنفسـه، أو تسـأله إن كان في احتيـاج إلى شـــيء؛ ومن ثَمّ قـال لهن: «لاَ تَبْكِينَ عَلَيَّ، بَـلِ ابْكِينَ عَلَى أَنْفُسِـــكُنَّ وَعَلَى أَوْلاَدِكُنَّ»!!. أي أنه قوي، وقبل الآلام بإرادته، له ســـلطان أن يضـــع ذاته وأن يأخذها.. ولكن الذي يســـتحق الدموع والاهتمام هو النســـوة وأولادهن.

وكان الرب العارف بكل شـــيء قد نبّههن إلى الأيام التي تُطوَّب فيها العواقر وكذلك الأثداء التي لم ترضـع، وهو ما حدث بالفعل بعد أربعين سنة عندما احترق الهيكل وتدمّرت أورشـــليم (٦٦-٧٠م). لقد مات الأطفال جوعًا، ولقد كانت الاثداء يابســـة لا لبن فيها بســـبب شـــدة الجوع، فمات الأطفال أمام أعين أمهاتهن، بل قد شـــق الجنود الرومان بطون الحوامل، ورفعوا الأجنة على أســـنة الرماح، تنكيلًا بشـــعب معاند قاومهم ورفض الاسـتسـلام وقتل الكثير من جنودهم. وبسـبب ذلك سـيكون عدم الإنجاب بركة (مع أن البنين ميراث من عند الرب)، وســـيطلب الناس الموت ليهربوا من هذا الجحيم (راجع هوشـــع١٠:٨؛ ٩:١٢؛ إشـــعياء٢:١٠؛ رؤيا٦:١٦)

«حِينَئِذٍ يَبْتَدِئُونَ يَقُولُونَ لِلْجِبَالِ: اسْـــقُطِي عَلَيْنَا! وَلِلآكَامِ: غَطِّينَا». وربما يقصــد الرب أن الطبيعة ســتكون رحومة علينا أكثر من جبروت الإنســان وشراسته، وربما بسبب الخجل، ليهربوا من جحيم تلك الأيام، والتي يصفها يوسيفوس وصفًا بليغًا[٣].

العود الرطب والعود اليابس:

ولكن ماذا قصد الرب بتعبير العود الرطب؟ إن العود الرطب هو الذي لا تأكله النار، فإذا فعلت الأشرار به هكذا، فكم ستفعل باليابس الذي هو نحن؟!! **العود الرطب** هو السيد المسيح الذي لم يوجد في فمه غش، وبلا خطية.. لطيف محب، قبل الآلام بصمت، وأمّا **العود اليابس:** فهم اليهود العصاة الذين تمردوا على الرومان ورفضوا المسيح، كأن الرب يقول: إن كانوا قد فعلوا بي أنا البار هكذا، فكم يفعل الرومان باليهود العصاة، وكم يفعل العالم بكم؟!

وورد في كتاب انتقام المخلص (كتاب أبو كريفي) أن تيطس القائد الروماني والذي قاد عملية اقتحام اورشليم، قال: "لقد صلبوا السيد على شجرة خضراء، فنصلبهم على شجرة يابسة"! والمعروف أن تيطس صلب آلافًا من اليهود بعد اقتحام أورشليم سنة٧٠م.

---

[٣] راجع الفصل الخاص بخراب أورشليم في هذا الكتاب.

لا تبكين عليّ، بل ابكين على أنفسكن:

دموع التوبة عند السـيد المسـيح أغلى من دموع الشـفقة عليه، مثل أم تقول لابنها الذي يشفق عليها في مرضها: "اهتم بنفسك هذا يسعدني أكثر!".

لم يحتقر السيد المسيح مشاعر أولئك النسوة القديسات الوفيات، كلّا! ولم يقل لهن لا تحزنّ، بل بالحري طلب منهن: أن يحزنّ على أنفســـهن وأولادهن... أي تطلعّوا إلى مستقبل هذه الأمّة.

فيرونيكا

القصة بسيطة ومعروفة ولكننا سنتوقف عندها قليلًا ونحن نحتفل بآلام مخلصنا، "فيرونيكا" معناها "الأيقونة الحقيقية". وتقول القصص المتوارثة في التقليد أن القديسة فيرونيكا مسحت وجه السيد المسيح – حين وقع تحت ثقل الصليب في محطة من المحطات في الطريق إلى الصلب – بدافع من حبّها له وإشفاقها عليه، وهي واحدة من مجموعة من النساء كن يخدمن معه خلال خدمته وبعضهن جاء معه من الجليل.

لقد قدمت له عمل رحمة ولمسة إنسانية، مثلما قدمت زميلة لها الطيب للسيد المسيح في بيت عنيا، ومثلما أكرمته أخرى في ذلك البيت وهي مرثا، ومثلما أنفقت عليه المجدلية وأخريات من أموالهن، ومثلما حمل سمعان الصليب عنه لعدة مئات من الأمتار، ومثلما تقدمت بعض النساء الشريفات ببعض الخلّ والمُرّ ليخفّفن عنه، ولم يكن ذلك ممنوعًا؛ وكان الجنود المُكلَّفون بتنفيذ الحكم يتغاضون عن هذه اللفتات الإنسانية مقابل أن المحكوم عليه ماضٍ إلى الموت، ولذلك لم يتذمروا عندما توقف المسيح ليلتفت خلفه ويشكر بنات أورشليم على بكائهم عليه.

البعض يقدم المال أو الطعام أو الشـراب، والبعض يقدم مسـاعدات لوجيسـتية، والبعض يقدم تقدمات عينية، والبعض يصـلي من أجل العمل، والبعض يعمل بيديه بأن يقدم المجهود الجسـدي،والبعض يخدم من خلال صمته وعدم اعتراضه وتعطيل العمل.

إن ذلك يذكرني بعمل المحبة الذي قدمه أهل إسـنا للجنود الذاهبين إلى الحرب ولم يكونوا يعرفونهم، وماذا تسـاوي جميع الأطعمة التي قدموها أمام قديس عظيم مثل "الأب باخوميوس" والذي كسـبته الكنيسـة أبًا عظيمًا من خلال عمل المحبة هذا!

وما أحوج العظماء مهما علا شـأنهم ومهما كانت شـهرتهم أو غناهم أو قوتهم الجسـدية، إلى مثل تلك اللفتات واللمسـات! حتى وإن لم تاتِ بنتيجة كبيرة واضـحة، فهي تترك عظيم الأثر، وربما سـاعدت شـخصًـا على النهوض من كبوته أو ضاعفت إنتاج آخر، أو أكدت على قيمة هامة وهي الوفاء، وهكذا.

نعود إلى فرونيكا... فعند عودتها إلى منزلها بعد أن طبعت منديلها على وجه الرب ليلتقط عرقه وجراحاته (مثل من يمسـح وجهه أو يطبع المنشـفة [الفوطة] على وجهه)، وجدت أن صـورة وجه السـيد المسـيح قد ظهرت على هذا المنديل، كما ظهرت الآلام في تلك الملامح.

يقول التقليد الغربي (الفرنسـي) أن فيرونيكا ذهبت إلى روما وشَـفَت الإمبراطور طيباريوس قيصـر بقوة المنديل الذي تحمله، وأنها عند نياحتها تركته للبطريرك القديس إكليمنضس.

ويفيد التقليد الفرنسي بأن فيرونيكا هـــي "زوجـــة زكـــا العشـــار" (لوقا ١٩: ٢-١٠)، حيث يضـــيف ذلك التقليد بأنها خرجت مع رجلها والذي باع كل ما يملك، وذهبا ليبشّـرا بالسـيد المسـيح حتى بلغا إلى فرنسا. وهناك بشّرا بالإنجيل ونشرا المسيحية في منطقة جنوب فرنسا.

وهناك قصـص أخرى غير مؤكدة تفيد أن فيرونيكا نفسـها هي مرثا أخت لعازر، وتقليد آخر أنها ابنة المرأة الكنعانية، وتقليد ثالث أنها المرأة نازفة الدم، لاسيما ولأن اسم فرونيكا بحسب بعض الشراح يعني الأيقونة الجميلة وبالتالي فهو صـــفة للمنديل الذي حملته المرأة الرحيمة (في كتاب نيقوديموس يرد أن امرأة تدعى فرونيكا كان المسيح قد شفاها من نزف الدم أرادت الإدلاء بشهادتها ولكنهم رفضوا قبول شهادة امرأة).

في أوائل القرن الخامس عشـــر تمّ تحديد منزل فيرونيكا كأحد محطات مراحل طريق الصـــلبوت في أورشـــليم، مما يعني أنها كانت تسـكن بالقرب من طريق الآلام، حيث صـــار المكان المحدد إحدى محطات "فيا ديلاروزا" مع غيرها من الحوادث التي جرت في هذه الرحلة الخالدة.

ويُقال أن المنديل مازال موجودًا في كنيســـة القديس بطرس في روما، مما يشهد بصحة التقليد.(*Butler، July 12*).

هنا لا ننسى ما قدمه كل من يوسف ونيقوديموس لجسد السيد المسيح وتكفينه، كانا كريمين ونبيلين، واهتمّا اهتمامًا كثيرًا بالجســـد؛ ولكن ما أحوج

السيد المسيح كإنسان لبعض من هذا وهو بعد حي. هذه عادتنا في الشرق أن نصف الشخص بأجمل الصفات ولكن بعد موته، بينما كان أحوج إلى بعض من التقدير ليضاعف عمله! وفي المقابل نتذكر كيف نظر يسوع بأسف إلى يهوذا عندما رأى الخيانة تطلّ من عينيه «يا صاحِبُ، لماذا جِئتَ؟» (مت٢٦: ٥٠)، وكذلك نظرته المعاتِبة لبطرس عندما كان يتنكّر له. بينما أعلن عن امتنانه لما فعلته المرأة ساكبة الطيب «يُخبَرْ أيضًا بما فعَلَتهُ هذِهِ تذكارًا لها» (مت٢٦: ١٣)، ولعل ذلك هو السبب في بدء مجمع القديسين بالعبارة "لأن هذا يا رب هو أمر ابنك الوحيد أن نشترك في تذكار قديسيك".

هذا وبحسب المؤرخ بتلر فإن تذكار نياحتها هو يوم ١٢ يوليو من كل عام، بركة صلاتها فلتكن معنا آمين.

اللافتة
(علة صلب المسيح)

وَكَتَبَ بِيلاَطُسُ عُنْوَانًا وَوَضَعَهُ عَلَى الصَّلِيبِ. وَكَانَ مَكْتُوبًا: «يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ مَلِكُ الْيَهُودِ». فَقَرَأَ هذَا الْعُنْوَانَ كَثِيرُونَ مِنَ الْيَهُودِ، لأَنَّ الْمَكَانَ الَّذِي صُلِبَ فِيهِ يَسُوعُ كَانَ قَرِيبًا مِنَ الْمَدِينَةِ. وَكَانَ مَكْتُوبًا بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَالْيُونَانِيَّةِ وَاللاَتِينِيَّةِ. فَقَالَ رُؤَسَاءُ كَهَنَةِ الْيَهُودِ لِبِيلاَطُسَ: «لاَ تَكْتُبْ: مَلِكُ الْيَهُودِ، بَلْ: إِنَّ ذَاكَ قَالَ: أَنَا مَلِكُ الْيَهُودِ!». أَجَابَ بِيلاَطُسُ: «مَا كَتَبْتُ قَدْ كَتَبْتُ». (يوحنا ١٩: ١٩-٢٢).

اللافتة أو العِلّة هي اللوحة التي سُمِّرت فوق رأس المسيح على الصليب، وتصف المصلوب وتشير إلى تهمته التي صُلِب لأجلها، حسب العادة المتبعة مع المحكوم عليهم بالموت صلبًا، ومع ذلك:

هناك ثلاث لافتات أُشير إليها في أحداث الصلب:

الأولى: التي كُتِبت ودار بها منادٍ يعلن عن أن يسوع الناصري مطلوب القبض عليه لأنه مخالف للناموس وساحر وكاسر للسبت، إن عرف أحد

مكانه فليدلّ عليه. وكان العنوان هو: "مطلوب القبض عليه". هذا يفسر لنا لماذا خاف أبوا المولود أعمي، أن يدليا بأيّة معلومات عن يسوع أو الاشارة إلى كونه إلهًا أو نبيًا؛ ولماذا طرد اليهود بارتيماوس نفسه: «قالَ أبَواهُ هذا لأنَّهُما كانا يَخافانِ مِنَ اليَهودِ، لأنَّ اليَهودَ كانوا قد تعاهَدوا أنَّهُ إنِ اعتَرَفَ أحَدٌ بأنَّهُ المَسيحُ يُخرَجُ مِنَ المَجمَعِ» (يوحنا٩:٢٢)؛ «وكانَ أيضًا رؤَساءُ الكهنةِ والفَرّيسيّونَ قد أصدَروا أمرًا أنَّهُ إنْ عَرَفَ أحَدٌ أين هو فليَدُلَّ علَيهِ، لكَيْ يُمسِكوهُ» (يوحنا١١:٥٧). وذُكِر في التلمود أنه صدر هذا الأمر فعلًا بأن يسوع الناصري مطلوبٌ القبض عليه، وأنه قُبِض عليه بالفعل وحوكم وصُلِب.

واللافتة الثانية: هي التي كُتِب عليها «علّته» أي سبب محاكمته وصلبه، وهي من بين إجراءات الصلب، وكان يحملها أحد الجنود الرومان متقدّمًا بها موكب الصلب، وعليها يُكتَب الاسم والتهمة والعقاب. وكان الغرض منها شفافية القضاء ومن جهة أخرى ردع أي إنسان يفكر في الثورة أو القتل أو إعلان نفسه ملكًا. وأمّا اليهود فقد كانوا يحكمون بالموت على المقترفين جرائم كبيرة، منها السحر والقتل والتجديف على الله. وفي بعض الأحيان كانت تُعلَّق اللافتة في صدر المحكوم عليه حاملًا هذا العار، معلنًا نفسه بنفسه مجرمًا مستحق للقتل، بينما يسير بين أربعة من الجنود.

واللافتة الثالثة: هي اللافتة التي توضع فوق رأس المصلوب، وفي حالة المسيح أشارت اللافتة إلى أنه صُلِب على صليب من خشبتين متعارضتين، وليس حرف T الشائع، وهو الشكل الذي اعتمده التقليد القبطي. وقد تكون هذه اللافتة هي ذاتها التي حملها الجندي أمام الموكب أو المُعلَّقة في رقبة المحكوم عليه، ولكن يبدو لنا من القرائن الكتابية وسياق الأحداث أنها مختلفة كما سيجيء...

ماذا كُتِب على اللافتة؟

يقول الإنجيليون الثلاثة إنه كُتِبت علّته «ملك اليهود»، ولكن القديس يوحنا يضيف عبارة «يسوع الناصري»، فاليهود لم يصفوه أبدًا بأنه المسيح وإنما يسوع الذي من الناصرة، وعند القبض عليه سألوه أأنت هو يسوع الناصري؟ «فسألهُمْ أيضًا: "مَنْ تطلُبونَ؟". فقالوا: "يَسوعَ النّاصِريَّ"» (يوحنا١٨:٧). والمرة الوحيدة التي دعوه "المسيح" كان استخفافًا: «تنَبّأْ لنا أيُّها المَسيحُ، مَنْ ضَرَبَكَ؟» (متى٢٦:٦٨).

وعندما بدأ الرسل كرازتهم لليهود كانوا يضيفون لقب "المسيح" إلى يسوع الناصري (يسوع المسيح الناصري): «فقالَ بُطرُسُ: "ليس لي فِضَّةٌ ولا ذَهَبٌ، ولكن الّذي لي فإيّاهُ أُعطيكَ: باسمِ يَسوعَ المَسيحِ النّاصِريِّ قُمْ وامشِ!"» (أعمال٣:٦؛ ٤:١٠).

وعندما كتب بيلاطس ذلك كتبه بناءً على التهمة المُوجَّهة من اليهود أنفسهم، وعندما سألهم «أأصلِبُ مَلِكَكُم؟»، قالوا: نعم «ليس لنا مَلِكٌ إلّا قَيصَرَ!» (يوحنا١٩:١٥)، ولما اعترض بعض الرؤساء بأن يكتب أنه (المسيح) هو قال ذلك، ردّ عليهم بيلاطس باحتقار وكبرياء الحاكم، بل وكطفل عنيد: «ما كتَبتُ قد كتَبتُ...» (يوحنا ١٩:٢٢)، أي أنه لم يترك لهم مجالًا للنقاش، ولا دافع بأنها فكرتهم.

وما يزال اليهود حتى اليوم يرون أنه يسوع الانسان الذي من الناصرة، ولا يصفونه بأنه المسيح، ومن ثَمّ فإن اليهود الذين يؤمنون بالمسيح الآن يُدعَون: "اليهود المسيّانيين" أي الذين آمنوا أخيرًا بأن يسوع الناصري هو المسيا الذي كانوا ينتظرونه.

يقول التقليد إن بيلاطس رأى في يديه دمًا، فلما غسلهما صار الدم يصرخ: "أنا بريء من دم هذا البار". ولذلك فإنه عندما كتب اللافتة: «يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ مَلِكُ الْيَهُودِ» كان يعبّر بذلك عن سخريته وضيقه من اليهود.

إعلان سلطان روما على اليهود:

كما حملت اللافتة في طياتها ما يعني: هوذا ملككم مُعلَّق على الصليب، وأن سلطان روما على اليهود، فقد قتلت حتى الذي قيل إنه ملك اليهود، وبالتالي فان الذي حُسِب ملكًا عليهم قد صُلب!

ويظهر أن بيلاطس هو الذي كتب اللافتة بنفسه وأرسلها، فأصاب بذلك هدفين معًا: الأول أنه أهان كرامة اليهود، والثاني أنه قضى على شبح الاتهام القائل بأن هناك من ادّعى أنه ملك في اليهودية. وبالتالي فإنهم لن يتشدّقوا بتهديده مرة أخرى بالشكوى إلى القيصر، فقد مات ملكهم! وقد تضايق اليهود عندما شعروا أنه بهذه الكتابة قد أخذ اتهامهم الساخر بأن يسوع ملك اليهود، مأخذ الجد ليكتبها كحقيقة وذريعة بالتالي لصلبه، وها هو قد صلبه..

اللافتة تظهر عن بعد:

ليس هناك حديث في العهد الجديد عن مكان الجلجثة، سوى إشارة عابرة إلى أن الموضع كان قريبًا من أورشليم، مما أتاح لكثيرين رؤية اللافتة المُعلَّقة فوق الرب المصلوب «فَقَرَأَ هذَا الْعُنْوَانَ كَثِيرُونَ مِنَ الْيَهُودِ، لأَنَّ الْمَكَانَ الَّذِي صُلِبَ فِيهِ يَسُوعُ كَانَ قَرِيبًا مِنَ الْمَدِينَةِ. وَكَانَ مَكْتُوبًا بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَالْيُونَانِيَّةِ وَاللاَّتِينِيَّةِ.» (يوحنا١٩: ٢٠).

اللافتة تؤكد ملك المسيح:

وجود اللافتة فوق رأس المسيح: «ملك اليهود» تؤكد ملكه، فقد دخل أورشليم كملك، ولأن مملكته ليست من هذا العالم كما صرّح، فقد ملك على خشبة (مزمور ٩٥: ١ قبطي)، أي أن مملكة يسوع تحققت، وكان آخر ملك

لهم، وبعد القيامة صـار ملكًا على جميع الأمم والممالك والقبائل والألسـن، كما هو واضح في سفر الرؤيا.

اللغات التي كُتِبت بها اللافتة:

كُتِبت اللافتة بلغات ثلاث وبحسـب الترتيب: اللغة العِبرية (الوطنية) وهي أيضًـا اللغة التي تخصـذ المدينة التي تمت فيها الأحداث. ثم اللاتينية أو الرومانية، وهي لغة الحاكم الروماني، لغة الإمبراطورية التي تسـود على المنطقة. ثم اليونانية وهي اللغة العامة العالمية، ولغة الأدب والفنون؛ وهذه هي اللغات الثلاث الرئيسـية في العالم آنذاك. ولأن المكان على بُعد دقائق من سـور المدينة، ولأن الصـلب حدث في موسـم الفصـح فقد قرأها مئات الآلاف وعادوا إلى بلادهم يُبشّـرون بالمصـلوب، ولم تكن اللافتة فوقه تدل عليه باعتباره مجرمًا عاديًا حُكِم عليه بالقتل.

رحلة اللافتة:

أرسلت الملكة هيلانة الى القسطنطينية جزءًا كبيرًا من الخشبة المقدسة مع إكليل الشوك والمسامير والحربة، كما أرسلت معها أيضًـا "اللافتة" التي كانت فوق صـليب المخلّص، وبعد حوالي قرن من الزمان قام الإمبراطور فالنتينيوس الثالث ابن قنسـطنس قيصـر، بتزيين المكان الذي وُضِـعت فيه اللافتة، وهو كنيسة الصليب المقدس، بالموزاييك، ووضـع اللافتة في المكان العلوي من الكنيسـة، وبمرور الزمن نسـي الناس مكانها ولم يلحظه أحد، وفي سـنة ١٤٩٢م. أراد أحد الكرادلة ترميم تلك الكنيسـة فاكتشـف العمال

هذا الكنز النفيس، الذي يُعتَبَر من الذخائر المقدسة الهامة، فعمّ الفرح الشعب المسيحي في العالم كله، وتوافدت الجموع لرؤيته لمده ثلاثة أيام، حيث عُثِر على الصندوق وبداخله اللافتة.

أمّا الصندوق فهو عبارة عن قالب من الطوب محفور فيه بحروف قديمة ارتفاعها ٥٠ مم *Titilis Crucis* أي "عنوان الصليب" (باللغة اللاتينية)، ثمّ اللافتة نفسها (عنوان الصليب)، وقد عُثر على جزء منها في زمن لاحق في روما، وبه ثلاثة سطور:

السطر الأول: به الجزء الأسفل من الحروف العبرية ولم يُتمكَّن من قرائتها.

السطر الثاني: *Nazarenots* (أي الناصري).

السطر الثالث: *Nazarinesre* (أي الناصري).

لماذا ثار بيلاطس؟

كان بيلاطس قد شعر بأنه حوصر من اليهود، وأنهم اضطرّوه وأكرهوه على القرار الذي لم يكن بودّه التوقيع عليه، لقد وجد أمامه شابًا نبيلا، ولم يجد في ادعاءات اليهود ما يبرّر قتله، كما تحدثت عنه بروكولا زوجته بشكل يوحي أنه إله أو على الأقل نبي، أمّا الآن وقد رضخ لتهديدهم فقد أراد الثأر لنفسه على نحو ما، فقرر بنفسه كلمات اللافتة، ولما اعترضوه جاء رد فعله عنيفًا حاسمًا باترًا.

ولكن وللأســف ما كان أحوجه إلى هذه الصــرامة والحســم وهو أمام القرار المصـيري بصـلب المسـيح، لقد اسـتأسـد وكشـف عن الوجه الروماني ذي السلطة الحاسمة أمام قرار بسيط هين، بينما جبن عن إنقاذ شخص هو أكثر شخص تأكد هو من برائته؛ أيهما أيسر قتل رجل أم تغيير صفته؟!

إنه أمر كثير الحدوث معنا أن نتشـــدد كثيرًا في قرارات تافهة، بينما نتساهل ونتخاذل أمام قرارات خطيرة ومصيرية!

ملحق:

مقارنة بين ما ورد عن اللافتة في الأناجيل الأربعة، وفي الترجمات المختلفة:

	Mark	Luke	Matthew	John
Verse	Mk 15:26	Lk 23:38	Mt 27:37	Jn 19:1 20
Greek Inscription	ὁ βασιλεὺς τῶν Ἰουδαίων	ὁ βασιλεὺς τῶν Ἰουδαίων οὗτος	οὗτός ἐστιν Ἰησοῦς ὁ βασιλεὺς τῶν Ἰουδαίων	Ἰησοῦς ὁ Ναζωραῖος ὁ βασιλεὺς τῶν Ἰουδαίων
Transliteration	*ho basileùs tôn ludaéōn*	*ho basileùs tôn ludaéōn hûtos*	*hûtós estin Iēsûs ho basileùs tôn ludaéōn*	*Iēsûs ho Nazōraêos ho basileùs tôn ludaéōn*
English translation	The King of the Jews	This is the King of the Jews	This is Jesus، the King of the Jews	Jesus of Nazareth، the King of the Jews
Languages	[none specified]	Hebrew, Latin, and Greek	[none specified]	Hebrew, Latin, and Greek
Full verse in KJV	And the superscription of His accusation was written over, THE KING OF THE JEWS.	And a superscription also was written over Him in letters of Greek, and Latin, and Hebrew; THIS IS THE KING OF THE JEWS.	And set up over His head His accusation written; THIS IS JESUS THE KING OF THE JEWS	And Pilate wrote a title، and put it on the cross. And the writing was JESUS OF NAZARETH THE KING OF THE JEWS.

الخَلُّ وَالمُرُّ

ولَمّا أتَوْا إلَى مَوْضِعٍ يُقالُ لهُ جُلجُثَّةُ، وهو المُسَمَّى «مَوْضِعَ الجُمجُمَةِ» أعطَوْهُ خَلًّا مَمزوجًا بمَرارَةٍ ليَشرَبَ. ولَمّا ذاقَ لَمْ يُرِدْ أنْ يَشرَبَ... ولِلوقتِ رَكَضَ واحِدٌ مِنهُمْ وأخَذَ إسفِنجَةً ومَلأها خَلًّا وجَعَلها علَى قَصَبَةٍ وسَقاهُ. (متى٢٧: ٣٣، ٣٤، ٤٨).

وجاءوا بهِ إلَى مَوْضِعِ «جُلجُثَّةَ» الّذي تفسيرُهُ مَوْضِعُ «جُمجُمَةٍ». وأعطَوْهُ خمرًا مَمزوجَةً بمُرٍّ ليَشرَبَ، فلَمْ يَقبَلْ... فرَكَضَ واحِدٌ ومَلأَ إسفِنجَةً خَلًّا وجَعَلها علَى قَصَبَةٍ وسَقاهُ قائلًا: «اترُكوا. لنَرَ هل يأتي إيليّا ليُنزِلهُ!»(مر١٥: ٢٢، ٢٣، ٣٦).

بَعدَ هذا رأى يَسوعُ أنَّ كُلَّ شَيءٍ قد كمَلَ، فلكَيْ يتِمَّ الكِتابُ قالَ: «أنا عَطشانُ». وكانَ إناءٌ مَوْضوعًا مَملوًّا خَلًّا، فمَلأوا إسفِنجَةً مِنَ الخَلِّ، ووضَعوها علَى زوفا وقَدَّموها إلَى فمِهِ (يو١٩: ٢٨، ٢٩).

كان الجنود المُكلَّفين بحراسة المصلوب قديمًا، ما أن يشعروا بأنه قد تألم بقدر كافٍ كعقوبة على جريمته حتى يقتلونه رأفة به، فلم يكن الغرض

من الصـــلب هو إقصـــاؤه عن الحياة، قدر ما تمثّلت العقوبة في التعذيب وترويع الآخرين، بحيث كانت لحظه قتله هي "لحظه الشـفقة"، أو كما يقول البعض الآن "رصـاصـة الرحمة"، وكثيرًا ما دُفِعت رشـاوى كبيرة للحصـول على هذا المطلب الكريه، أي التعجيل بالقتل!!!

ومن بين العادات اليهودية التي تتصـل بالرحمة والشـفقة بحسـب ما ورد في التلمود، أن تقوم بعض النسـاء والفتيات الشـريفات، بتقديم مشـروب مخدِّر للمصـلوبين لتخفيف متاعبهم ومسـاعدتهم على اجتياز هذه الآلام الرهيبة بقدر ما. وهو عمل موروث في التراث الكتابي اليهودي، حيث يرد في سـفر الأمثال: «أعطوا مُسكِرًا لهالِكٍ، وخمرًا لمُرّي النَّفسِ. يَشـرَبُ ويَنسَـى فقرَهُ، ولا يَذكُرُ تعَبَهُ بَعدُ» (أمثال٣١: ٦، ٧).

ولم يكن الجنود يمنعون مثل هذا العمل الإنســاني في أغلب الأحوال، ونقرأ في (مرقس ١٥:٢٣) أن الجند قدموا للسيد المسيح خلًا ممزوجًا بمرارة ليشرب، فلما ذاقه لم يرد أن يشرب، لكنه قال لاحقًا «أنا عطشان»، وحينئذ قدموا له "خلًّا فقط" أو ما يشبهه، فشرب حيث قال بعدها «قد أُكمِل...»

فما هو الفرق بين المرتين؟

في المرة الأولى نفهم من القـديس متى أن الجنود إنمـا قـدموا ذلـك سـخرية واسـتخفافًا، وربما كان ما قدموه هو الذي أتت به النسـوة الشـريفات، ولكن حين قدموه ورُفِض كـان الجند يتمّمون النبوة الخـاصـــة بالســـيد: «يَجعَلونَ في طَعامي عَلقَمًا، وفي عَطَشـــي يَســـقونَني خَلًّا» (مزمور

٢١:٦٩)، حيث يُقال إن العلقم المذكور هنا هو مثل الخشـــخاش الذى يُســـتَخلَص منه الأفيون، وهو مادة مخدِّرة فعلًا ومُرّة معًا، يقول القديس يوحنا: «وكانَ إناءٌ مَوْضـــوعًا مَملوًّا خَلًّا، فمَلأوا إســـفِنجَةً مِنَ الخَلِّ، ووضَعوها علَى زوفا وقَدَّموها إلَى فمِهِ» (يوحنا ١٩:٢٩).

أمّا الخلّ الذى أســـقوه إيّاه في المرة الثانية، كان من النوع الرخيص الذي يســتخدمه العمال والجنود عادة أثناء عملهم وســهرهم... وبينما رفض السيد المسيح المشروب المخدِّر، شرب لاحقًا من الشراب العادي المنعش وذلك ليستطيع أن يصرخ: «قد أُكمِل...»

عندما قال السـيد المسـيح «أنا عطشـان»، قالها عند النهاية، ولو كان قد قالها قبل ساعات لأثارت سخرية اليهود والجنود الذين سيتساءلون كيف ســـيتحمّل إذًا ما هو آتٍ عليه من آلام ومعاناة الصـــلب، ولكن الخوف والارتباك الذي أصابهم من جرّاء ما عاينوه من السيد المسيح، سواء بكلماته السبع، أو الزلازل أو إظلام الشمس، هذا جعلهم أكثر شفقة عليه، ومن ثَمّ تقدم أحد الحاضرين (جندي أو شخص عادي) ليقدّم له الخل.

وهذا الخل الممزوج بماء فقط... كان شـرابًا معروفًا يُدعى بوسـكا *Poska*، ولأن المصـــلوب كان يفصـــل بين قدميه وبين الأرض عادة حوالي تسعين سنتيمترًا، فقد احتاجالأمر إلى قصبة من الزوفا (بحسب ما ورد في يوحنا١٩: ٢٩).

وهنا سخر اليهود...

فتهكمّوا قائلين: «اترُكوا. لنَرَ هل يأتي إيليّا ليُنزِلهُ!»، لا سيما وقد نادى: «إيلي، إيلي، لَما شَبَقتَني؟»، ولكن ذلك الشخص الرحيم لم يتراجع عن عمل الرحمة، ومع ذلك فقد رأى البعض أن إعطاء "مشروب الخل" لشخصٍ عطشان فيه شيء من السخرية!

لقد رفض السيد المسيح المُرّ مع الخلّ لأنه كان بمثابة مادة مُخدِّرة، وقد كان قادرًا أن يعفي نفسه من الصليب كله بآلامه.. وبالتالي فهو مصرٌّ على أن يتجرّع الكأس بكاملها، وهو الذى قال: «اجعَلْ سيفَكَ في الغِمدِ! الكأسُ الّتي أعطاني الآبُ ألا أشرَبُها؟» (يوحنا١٨:١١)، وعنه قالت النبوة «قد دُستُ المِعصَرَةَ وحدي، ومِنَ الشُّعوبِ لَمْ يَكُنْ مَعي أحَدٌ» (إش٦٣:٣)، والقديس بولس قال عنه: «مع كونِهِ ابنًا تعَلَّمَ الطّاعَةَ مِمّا تألَّمَ بِهِ» (عبرانيين٥:٨)، «وإذ وُجِدَ في الهَيئَةِ كإنسانٍ، وضَعَ نَفسَهُ، وأطاعَ حتَّى الموتَ، موتَ الصَّليبِ» (فيلبي٢:٨). وإذا أُفرِغ الصليب من الألم فكيف يكون صليبًا، وكيف يكون قد تألم لأجلنا؟ هذا يذكّرنا بالمخدّر الذي اخترعوه وحاولوا تقديمه لملكة إنجلترا عندما جاءت ساعتها لتلد، فرفضت في البداية، لأنها تريد أن تتألم من أجل ابنها، لتعرف كم هو ثمين عندها إذا عانت فيه آلامًا شديدة، هكذا وَلَدَ السيد المسيح الكنيسة من خلال آلامه، وهكذا تسلّم التلاميذ والرسل خدمتهم موسومة بالألم، حتى صاروا يفخرون

بالألم... القديس بولس الرسول نفسه قال عنه الرب: «لأنّي سأُرِيهِ كمْ يَنبَغي أنْ يتألَّمَ مِنْ أجلِ اسمي» (أع٩:١٦)، وهو نفسه يفخر بأنه تعب أكثر من الرسل.

كما أن السيد المسيح إذا كان قد شرب المُخدِّر، لكنّا قد خسرنا الكلمات الرائعة التي قالها على الصليب بكل غناها!!... إن هذا يذكّرنا أيضًا بالناس الذين يقدمون عروضًا للموت الهادئ (الموت الصامت) للراغبين في التخلص من الحياة دون معاناه!!! وهناك شركات ظهرت على مواقع الإنترنت، استطاع البوليس الدولي ضبطها، كانت تقدم النصائح (بمقابل مادي) لموت سهل... وبعضها يقدّم موتًا والانسان يضحك!!

إن رحلة السيد المسيح معنا على الأرض مليئة بالآلام منذ ولادته وحتى وضعه في القبر، ولكننا نفخر بالألم ونفخر بالصليب لأننا بجلدته شفينا «الّذي حَمَلَ هو نَفسُهُ خطايانا في جَسَدِهِ علَى الخَشَبَةِ، لكَيْ نَموتَ عن الخطايا فنَحيا للبِرّ. الّذي بجَلدَتِهِ شُفيتُمْ» (١بطرس٢:٢٤).

حقيقة صلب المسيح

فإنَّني سلَّمتُ إلَيكُمْ في الأوَّلِ ما قَبِلتُهُ أنا أيضًا: أنَّ المَسيحَ ماتَ مِنْ أجلِ خطايانا حَسَبَ الكُتُبِ، ٤وأنَّهُ دُفِنَ، وأنَّهُ قامَ في اليومِ الثَّالِثِ حَسَبَ الكُتُبِ... (١كورنثوس ١٥: ٣، ٤).

يتعرض أولادنا في الجامعات والمدارس لأسئلة وتشكيكات حول العقيدة، وأولادنا مؤمنون ويحيون العقيدة منذ طفولتهم، ولم يفكروا في الهجوم على أحد أو المناقشات الغبية، ولكن الاسئلة تقلقهم ومن ثم يحتاجون إلى كيف يردون أولا حتى لا يتشككون بسبب ما يسمعونه، ومن جهة أخرى حتى لا يظن المشككون أنهم على حق ما داموا لم يسمعون ردًا. ومنها التشكيك في حقيقة الصلب:

فبينما تؤكد الكنيسة عن قناعة لا شك فيها، أن المسيح قد مات مصلوبًا من أجل فداء الإنسان الخاطئ. إلا أن الذين ينكرون صلب المسيح ينكرون مبدأ الفداء، بل وينكرون حاجة الإنسان أساسًا إلى مخلص. ولكن المسيحيّين يرون أنه لا خلاص بدون سفك دم، أي من غير عمل الكفارة الذي تم بالصليب: «بِدُونِ سَفْكِ دَمٍ لا تَحْصُلُ مَغْفِرَةٌ» (عبرانيين٩: ٢٢). فهم يرون أن المسيح قد مات موتًا طبيعيًّا ثم رفعه الله

إلى السماء، وأن الذي صلب بالتالي هو يهوذا الإسخريوطي أو شخص آخر...

وفيما ينكرون فكرة الفداء، يرون كذلك أنّ التوبة والأعمال الصالحة كافية لخلاص الإنسان من خطاياه، وأنّ الغفران يرتبط ارتباطًا وثيقًا برحمة الله وإرادته، ولا علاقة له بعمل المسيح الفدائي على الصليب. كذلك يرون أنه لا ضرورة لوجود وسيط بين الله والناس، لأن الإنسان كما يدّعون يولد بريئًا وأنّ ما يرتكبه من آثام هي أخطاء متولدة عن ضعف الطبيعة البشرية ونقصانها، وليس بفعل الطبيعة الساقطة التي ورثها عن آدم. ولكن المسيحية تعلّم أن المشكلة لم تكن في خطأ أُرتُكِب، قدر ما كانت في طبيعة تحتاج إلى التجديد بعد أن تلوّثت ودخل فيها سُمّ الخطية، كما أن فكرة الفداء والذبائح موجودة في كافة الثقافات والديانات.

ولكن على المشكِّك أن يقدم لنا الأدلة على صدق ادعائه...

فكرة الكفارة:

إن عقيدة الكفارة عن الخطايا لم تكن عقيدة مُستحدَثة، بل نراها جزءًا لا يتجزّأ في جوهر كل الممارسات الدينية، حتى في ممارسات الأديان الوثنية. والحقيقة الثابتة أن هذه الممارسات كانت في أساسها ممارسات سليمة سنَّ الله قانونها الأول بعد سقوط آدم وحواء في خطيئة العصيان. فبالرغم من عصيان آدم وحواء وعدم اعترافهما بخطيتها، أخذ الله حيوانًا ومن جلده صنع

لهما ثوبين ليستر عورتيهما (التكوين٣: ٢١). والدارس للفظة "كفارة" أو تكفير يكتشف أن معناها القاموسي هو الستر أو التغطية *Cover*. وقد أخذت الأمم الوثنية هذه الشعائر عن رجال الله المؤمنين وانتحلتها لآلهتها الوثنية، فشوَّهت معالمها، وإن ظلت القرابين في جوهرها رمزًا للتكفير.

الشكوك:

هذه الشكوك في صليب المسيح، ظهرت بين بعض المبتدعين في القرون الأولى، حيث نادوا بمثل هذه البدعة. مثل جماعة البازيليديسيين الغنوسية (أتباع فاسيليدس) والتي ادّعى مؤسسها أن سمعان القيرواني الذي حمل الصليب عن المسيح عندما أعيا، رضي أن يُصلب عوضًا عنه، فألقى الله عليه شبهه، فصارت هيئته مثل هيئة المسيح وتمَّ صلبه! وكذلك قال الدوكيتيون إن المسيح لم يُصلب مطلقًا إنما بدا أو تراءى لليهود أنهم صلبوه. والواقع أن اسم الدوكيتيين مشتق من فعل يوناني معناه "يظهر" أو "يتراءى"، وهو رمز لمُجمَل عقيدتهم في الصلب.

كما ادعى البعض أن الملاك جبرائيل أنقذ المسيح من الصليب، ولكن معجزات المسيح والتي أعترف بها الكل، كانت أقوى بكثير من مجرد إنقاذ مثل ذلك، وعند القبض عليه أرعبهم بقوله: «أنا هو»، كما حاولوا أكثر من مرة أن يقبضوا عليه فلم يقدروا «ومضى هكذا» (يوحنا٨: ٥٩).

في سنة ١٨٥م ادّعت طائفة هرطوقية من نسل كهنة طيبة الذين اعتنقوا المسيحية، أنه: "حاشا للمسيح أن يُصلب، بل رُفع إلى السماء سالمًا". وفي سنة ٣٧٠م ظهرت إحدى الفرق الغنوسية الهرموسية التي أنكرت صلب المسيح وقالت: "إنه لم يُصلب بل شُبِّه للناظرين أنهم صلبوه". وفي سنة ٥٢٠م أتى القديس ساويرس الأنطاكي في الإسكندرية فوجد فيها فئة من الفلاسفة يعلّمون أن المسيح لم يُصلب بل شُبِّه للناس أنهم صلبوه. وفي سنة ٥٦٠م أنكر الراهب تيودوروس طبيعة المسيح البشرية وبالتالي أنكر صلبه. وفي سنة ٦١٠م نادى الأسقف يوحنا ابن حاكم قبرص بأن المسيح لم يُصلَب، بل شُبِّه للناظرين أنهم صلبوه. كذلك أيضًا ماني الفارسي (٢٧م) فقد ادّعى أن الذي صُلب هو ابن أرملة نايين الذي كان المسيح قد أقامه من بين الأموات. ونقرأ في تقليد مَانَوِي آخر أن الشيطان الذي سعى في صلب المسيح: قد وقع في حفرة مؤامرته وصُلب مكانه!

ولكن الحقيقة غير ذلك:

١- فكيف يُصلَب شخص آخر ولا ينتبه الجمهور والرؤساء، فإن السيد المسيح لم تكن شخصيته مجهولة في المجتمع اليهودي، لأنه كان يجول في كل مدينة وقرية يكرز بملكوت الله، كما أنه صنع مع الشعب معجزات لا يُحصى عددها، وكانت تجتمع إليه ألوف من البشر لكي تستمع إلى تعاليمه. وفي المحاكمة قال إنه كل يوم كان يعلّم في الهيكل ولم يقل كلمة في الخفاء.

٢- ثم إنه قَبْل الصليب مَرَّ بخمس محاكمات مدنية ودينية، أمام ولاة مثل هيرودس وبيلاطس، وأمام رؤساء الكهنة حنّان وقيافا، وبعد هذه المحاكمات وقف بيلاطس والي اليهودية أمام جموع الشعب، وخَيَّرهم بين تسليم المسيح لهم ليُصلَب وبين باراباس اللص، وعندما طلبوا صلب المسيح سلَّمه بيلاطس إلى جند الرومان ومرَّ بمراحل الجلد واللكم والتعيير وإكليل الشوك، وأخيرًا سار في طريق الآلام حاملًا الصليب تحت حراسة مُشدَّدة إلى أن بلغ مكان الجلجثة، وهناك سمّروه ورفعوه على الصليب. وكان برفقته في طريق آلامه حتى مكان صلبه أمه مريم ويوحنا الحبيب وبقية المريمات، فهل اختلط الأمر على أمه ويوحنا والمريمات اللائي كن ينظرن الموضع من بعيد؟

٣- وكذلك يسجل لنا الإنجيل موقفًا إنسانيًا لا يمكن أن يصدر عن شخص غير المسيح بالذات. ففي الساعات الأخيرة من حياته، وهو ما برح معلقًا على الصليب، نراه بكل محبة يصفح عن قاتليه وأعدائه. وهذا فعل لا يمكن أن يأتيه شخص مثل يهوذا الإسخريوطي الخائن الذي سلم سيده إلى أيدي خصومه الألدّاء (والذي ادّعى البعض أنه صُلِب مكان يسوع المسيح). كما أنه وهو على الصليب نطق بكلمات لا ينطق بها لسان بشري.

٤- وبالإضافة إلى ذلك، علينا ألّا ننسى دور مريم أم المسيح التي ظلّت إلى جوار الصليب مع نساء أخريات ورد ذكرهن في الإنجيل، وكذلك

شاهد العيان القديس يوحنا الحبيب. هؤلاء شهدوا أحداث الصلب وخاطبهم المسيح في غمرة آلامه الهائلة قائلًا لأمه: «يا امرأة، هوذا ابنك، ثم قال ليوحنا: هوذا أمك». ألم يكن في وسع مريم أمه أن تميز بينه وبين آخر، ثم إذا كان آخر قد صلب مكانه فما هو الداعي أن تقف باكية حتى أنزلوه عن الصليب؟

٥- ادّعاء صلب يهوذا: فمتى اندس يهوذا في هذا المشوار العلني المكشوف أمام كل البشر، ليضع نفسه مكان المسيح؟! وكيف أن يهوذا بعد خيانته يفعل هذا؟ ويا تُرى لِمَنْ سَلَّم يهوذا نفسه لكي يُصلَب عِوَضًا عن المسيح، وهل لو كان يهوذا هو الذي صُلِبَ كانت تحدث كل مظاهر الطبيعة التي قال بسببها "ديونيسيوس الأريوباغي" العالِم الفلكي: "لابد أن إله الطبيعة يتألَّم الآن".

٦- وماذا عن الجلجثة؟ تلك التلّة الرهيبة المعروفة في التاريخ بتلّة الجلجثة. وقد تناول الباحث البريطاني فرانك موريسون في كتابه: "من دحرج الحجر؟" قصة صلب المسيح وقيامته بعقلية القانوني المتضلّع، الذي استهدف أن يدحض مزاعم المسيحية، ولكن دراسته أسفرت عن نتائج لم يكن موريسون نفسه يتوقعها! فبدلًا من أن يكون الكتاب تفنيدًا لأسطورة الصلب كما كان يعتقد، جاء البحث ليكون وثيقة إثبات صارخة في وجه الرافضين الساخرين.

٧- يوسف الرامي ونيقوديموس: إنهم عضوا السنهدريم اللذان كانا قد آمنا سرًا بالمسيح، لقد حصلا على إذن رسمي من الحاكم الروماني بيلاطس البنطي بدفن المسيح في قبر كان قد أعده يوسف الرامي لنفسه. واستطاعا معًا – وربما بمساعدة خدمهما- أن يقوما بجميع مراسيم الدفن كما نصّت عليها الشريعة اليهودية.

٨- ومن بين أدلّة صلب المسيح أيضًا، ما ورد في البشائر الأربعة عن ضعفات التلاميذ، من خوف وإنكار، لا يمكن أن يقبله التلاميذ ما لم يكن الأمر حقيقيًا، والصلب حدث. وهل يضحّي التلاميذ بحياتهم لأجل أسطورة وخبر مشكوك فيه؟!

٩- والسؤال الذي يفرض نفسه أيضًا: أكان الله حقًا في حاجة إلى إلقاء الشبه على أحد؟ يدّعي البعض أن عملية الشبه هدفت إلى عقاب يهوذا الإسخريوطي الذي غدر بالمسيح، بيد أن الإنجيل يقدم لنا تقريرًا وافيًا عن مصير يهوذا هذا، إذ أقدم على الانتحار ندمًا على ما جنت يداه.

١٠- دليل آخر وهو القيامة: أليس الذي صُلِب هو الذي قام، والصلب بدون قيامة لا قيمة له، والقيامة من غير صلب لا معنى لها، كما أن للقيامة بُعدًا آخر في الشهادة لموت المسيح، فالمسيح كما شهد التلاميذ، بل كما شهد مئات من أتباع المسيح بعد قيامته مباشرة وفي خلال أربعين يومًا، قد ظهر لهم مؤكِّدًا لهم أنه حقًا قد صُلب ثم قام من بين الأموات.

١١- توما رمز المتشكّكين: ولعل أبرز حدث نستشهد به، هو موقف توما الذي اشتهر بواقعيته وعقلانيته التي تميَّزت بالشَّك. هذا أبى أن يصدّق ما رواه له بقية التلاميذ عن ظهور المسيح لهم، وظنّ كما يبدو أن ما اعتراهم من ألم وحزن على صلب سيدهم وموته قد أثر على عقولهم، لهذا تحداهم قائلًا: «إِنْ لَمْ أُبْصِرْ فِي يَدَيْهِ أَثَرَ الْمَسَامِيرِ، وَأَضَعْ إِصْبِعِي فِي أَثَرِ الْمَسَامِيرِ، وَأَضَعْ يَدِي فِي جَنْبِهِ، لا أُومِنْ» (يوحنا ٢٠:٢٥).

كما شهد التلاميذ أنفسهم مثل القديس يوحنا الحبيب: «اَلَّذِي كَانَ مِنَ الْبَدْءِ، الَّذِي سَمِعْنَاهُ، الَّذِي رَأَيْنَاهُ بِعُيُونِنَا، الَّذِي شَاهَدْنَاهُ، وَلَمَسَتْهُ أَيْدِينَا، مِنْ جِهَةِ كَلِمَةِ الْحَيَاةِ. فَإِنَّ الْحَيَاةَ أُظْهِرَتْ، وَقَدْ رَأَيْنَا وَنَشْهَدُ وَنُخْبِرُكُمْ بِالْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَ الآبِ وَأُظْهِرَتْ لَنَا» (يوحنا الأولى ١:١-٢).

والسيد المسيح نفسه يقول: «هذَا هُوَ الْكَلامُ الَّذِي كَلَّمْتُكُمْ بِهِ وَأَنَا بَعْدُ مَعَكُمْ، أَنَّهُ لا بُدَّ أَنْ يَتِمَّ جَمِيعُ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَنِّي فِي نَامُوسِ مُوسَى وَالأَنْبِيَاءِ وَالْمَزَامِيرِ. حِينَئِذٍ فَتَحَ ذِهْنَهُمْ لِيَفْهَمُوا الْكُتُبَ. وَقَالَ لَهُمْ: هكَذَا هُوَ مَكْتُوبٌ، وَهكَذَا كَانَ يَنْبَغِي أَنَّ الْمَسِيحَ يَتَأَلَّمُ وَيَقُومُ مِنَ الأَمْوَاتِ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ» (لوقا ٢٤:٤٤-٤٦).

حقائق تاريخية:

هذه شهادات بعض من المؤرخين تؤكد حقيقة صلب المسيح:

أ) شـــهادة المؤرخ الروماني كرنيليوس تاســـيتوس (٥٢-٥٥م): وهو يتحدث عن حريق روما ويدين فيها نيرون الذي قام بحرق روما، وألصـــق التهمة بالمسيحيين الذين انتسبوا إلى المسيح وهو مصدر هذا الاسم، وكان قد قُتِل بالصلب في عهد بيلاطس البنطى الحاكم اليهودي.

ب) شـهادة لوسيان (وُلِد سنة ١٠٠م) موهو مؤرخ وكاتب يوناني، قال إن المسيحيين لا يزالون يعبدون ذلك الرجل العظيم الذي صُلِب في فلسطين لأنه أدخل إلى العالم ديانة جديدة.

جـــ) شهادة التلمود اليهودي: والذي ذكر عن حادثة الصلب أن يسوع الذي صُـلِب نودي أمامه مدة أربعين يومًا أنه سـيُقتَل لأنه سـاحر، وبما أنه لم يتقدم أحد للدفاع عنه، صُلِب في مساء عيد الفصح.

د) شـــهادة يوســـيفوس فلافيوس: وهو مؤرخ يهودي وُلِد ســـنة ٣٧ ميلاديـة، ذكر قائلًا: في زمن هيرودس أنتيباس ظهر إنســـان حكيم -لو صـح أن نلقّبه بإنسـان- اسمه يسـوع، كان يصـنع المعجزات الباهرة العديدة وقد اجتذب وراءه عددًا كبيرًا من الناس وأيضًـا من الأمم، وهذا المسـيح كان قد وشى به زعماؤنا وأسلموه إلى بيلاطس فأماته على الصليب، ولكن الذين تبعوه لم يكفّوا عن حبّهم لـه، وقد ظهر لهم حيًّا في اليوم الثالث لموته كما سبق وتنبأ عنه الأنبياء.

حقائق علم الآثار:

أ) هناك مخطوطة تاريخية تحوى التقرير الذي رفعه بيلاطس البنطي إلى الإمبراطور طيباريوس قيصر، بسبب ادّعاء البعض أن المسيح مُحرِّض سياسي يفسد الأمة، فيمنع أن تُعطى الجزية لقيصر، قائلًا إنه مسيح ملك. ومازال هذا التقرير محفوظًا إلى الآن في مكتبة الفاتيكان بروما، وهو يسجّل وصفًا كاملًا عن شخص المسيح وقصة القبض على المسيح ومحاكمته وصلبه وموته.

ب) كفن المسيح: وهو موجود ألان في تورينو بإيطاليا، وبعد دراسات وأبحاث علمية مضنية، أثبت العلماء أن هذا الكفن هو كفن المسيح الذي عُلّق على الصيب ومات وقام، مما جعل صورة الكفن لها أبعاد ثلاثية.

جـ) صورة الحكم بصلب المسيح: لقد اُكتُشِف لوح من النحاس الأصفر، مكتوبًا عليه بالغة العبرية الحكم الذي نطق به بيلاطس البنطي الوالي الروماني، على يسوع الناصري، بالموت صلبًا. وقد تم اكتشاف هذه اللوحة سنة ١٢٨٠ ميلادية، ويرجع تاريخها إلى القرن الأول الميلادي ومازالت موجودة بايطاليا.

إذًا مات المسيح عنا مصلوبًا:

إن عقيدة الفداء، أي موت المسيح على الصليب من أجل خلاص الجنس البشري، هي عقيدة جوهرية في صُلب المسيحيّة. فمبدأ الخلاص قائم في أصله على هذا العمل الفدائي، وهو عمل لم يخطّط له البشر، أو يرسم معالمه الناس، إنما هو من صنع الله، وليس للإنسان أي فضل في ذلك.

«وَلكِنْ أَنْتُمْ أَنْكَرْتُمُ الْقُدُّوسَ الْبَارَّ... وَرَئِيسُ الْحَيَاةِ قَتَلْتُمُوهُ، الَّذِي أَقَامَهُ اللّهُ مِنَ الأَمْوَاتِ، وَنَحْنُ شُهُودٌ لِذلِكَ» (أعمال:١٤و١٥). وأيضًا: «هذَا (أي المسيح) أَخَذْتُمُوهُ مُسَلَّمًا بِمَشُورَةِ اللّهِ الْمَحْتُومَةِ وَعِلْمِهِ السَّابِقِ، وَبِأَيْدِي أَثَمَةٍ صَلَبْتُمُوهُ وَقَتَلْتُمُوهُ» (أعمال٢:٢٣).

يبقى أن نسأل: لماذا اختار المسيح الصلب؟

اختار السيد المسيح الصلب دون غيره: ليصالح الأرضيين مع السمائيين لأن المصلوب يكون مُعلَّقًا بين السماء والأرض، ولكي يزيل عنا اللعنة لأنه مكتوب «ملعون كل من عُلِّق على خشبة». كما أنه بالصلب اختار أبشع الآلام، وقدم ذبيحة نفسه بنفسه، فهو الكاهن وهو الذبيحة. والصلب فيه سفك للدم دون كسر للعظام، ومكتوب أنه بدون سفك دم لا تحدث مغفرة، ويفتح يديه وهو مصلوب ليضم إليه الكل. ويمثّل مشهد الدينونة بين اليمين والشمال حيث يمثل اللص اليمين جميع الذين عن

اليمين وهكذا اللص الشمال، والمدة التي قضاها على الصليب قبل الموت كانت كافية لإتمام النبوات والنطق بالكلمات الخالدة السبع. وهكذا لم يرد أن يموت بطريقة أخرى، لا بالرجم ولا الذبح ولا الحرق ولا غيرها.

إن المعجزة الحقيقية في المسيحية ليست القيامة بل الصلب! لأنه من الطبيعي أن يقوم الله، ولكن أن يُصلَب فهذا هو العجب، كما أن الرب لم يكن محتاجًا إلى إلقاء شبهه على أحد، بعد المعجزات الفائقة التي صنعها.

القبر المقدس

وَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ، جَاءَ رَجُلٌ غَنِيٌّ مِنَ الرَّامَةِ اسْمُهُ يُوسُفُ، وَكَانَ هُوَ أَيْضًا تِلْمِيذًا لِيَسُوعَ. فَهذَا تَقَدَّمَ إِلَى بِيلاَطُسَ وَطَلَبَ جَسَدَ يَسُوعَ. فَأَمَرَ بِيلاَطُسُ حِينَئِذٍ أَنْ يُعْطَى الْجَسَدُ. فَأَخَذَ يُوسُفُ الْجَسَدَ وَلَفَّهُ بِكَتَّانٍ نَقِيٍّ، وَوَضَعَهُ فِي قَبْرِهِ الْجَدِيدِ الَّذِي كَانَ قَدْ نَحَتَهُ فِي الصَّخْرَةِ، ثُمَّ دَحْرَجَ حَجَرًا كَبِيرًا عَلَى بَابِ الْقَبْرِ وَمَضَى. وَكَانَتْ هُنَاكَ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ الأُخْرَى جَالِسَتَيْنِ تُجَاهَ الْقَبْرِ.

وَفِي الْغَدِ الَّذِي بَعْدَ الاسْتِعْدَادِ اجْتَمَعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيُّونَ إِلَى بِيلاَطُسَ قَائِلِينَ:«يَا سَيِّدُ، قَدْ تَذَكَّرْنَا أَنَّ ذلِكَ الْمُضِلَّ قَالَ وَهُوَ حَيٌّ: إِنِّي بَعْدَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ أَقُومُ. فَمُرْ بِضَبْطِ الْقَبْرِ إِلَى الْيَوْمِ الثَّالِثِ، لِئَلاَّ يَأْتِيَ تَلاَمِيذُهُ لَيْلاً وَيَسْرِقُوهُ، وَيَقُولُوا لِلشَّعْبِ: إِنَّهُ قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ، فَتَكُونَ الضَّلاَلَةُ الأَخِيرَةُ أَشَرَّ مِنَ الأُولَى!» فَقَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ:«عِنْدَكُمْ حُرَّاسٌ. اِذْهَبُوا وَاضْبُطُوهُ كَمَا تَعْلَمُونَ». فَمَضَوْا وَضَبَطُوا الْقَبْرَ بِالْحُرَّاسِ وَخَتَمُوا الْحَجَرَ. (مت٢٧: ٥٧-٦٦).

صُلب الرب يسوع فوق تلة بالقرب من أورشليم أُطلق عليها خمس تسميات: الجلجثة بالعبرانية، والإقرانيون باليونانية، الجمجمة بالعربية، كالفاري باللاتينية، وجبل جوعة بالآرامية.

ولم تحدّد الأناجيل الأربعة المكان الذي صُـلِب فيه السـيد المسـيح، سـوى أنه «قريبٌ من أورشـليم» حيث ذكر القديس يوحنا: «فقَرأَ هذا العُنوانَ كثيرونَ مِنَ اليَهودِ، لأنَّ المَكانَ الّذي صُـلِبَ فيهِ يَسـوعُ كانَ قريبًا مِنَ المدينةِ. وكانَ مَكتوبًا بالعِبرانيَّةِ واليونانيَّةِ واللّاتينيَّةِ» (يوحنا١٩:٢٠)؛ ولكن زيارات المسـيحيين له جعلت من الصـعب اختفاءه. لقد حاول كثيرون مثل هادريان الملك إخفاءه بتحويل المكان إلى "كابيتولينا ايلياء" ومكان عبادة لجوبيتر، أوتحويله إلى موضـع لإلقاء القمامة، ولكن اكتشـاف الصـليب والقبر جدّد الاهتمام بالمكان، وجعل القبر المقدس هو مركز المدينة.

يفيد التقليد بأن الموضـع الذي عُلّق عليه المسيح المصـلوب هو مكان ذبح إسـحق، والموضـع الذي دُفِنت فيه جمجمة آدم. ويتأمل بعض الشُـرّاح فيرون أن دم المسيح نزل من جسده على جمجمة آدم، ومغارة إرميا النبي. ويظهر المكان عن بعد في شـكل الجمجمة لاسـيما بعد الفتحتين اللتين أحدثهما علماء الحفريات فيه.

قبور اليهود في ذلك الوقت

كانـت قبور اليهود في تلـك الحقبـة عبـارة عن مغـارة بهـا طرقـة في الوسط، بينما على الجانبين توضـع صـفوف الصـناديق، في فتحات تسـمى نواويس (وبالعبريـة كوك وجمعها كوكيم). ولكن قبر يوسـف الرامي الذي دُفِن فيه المسـيح كان قبرًا خاصًـا نُحِت في الصـخرة، وهو أمر يكلّف كثيرًا وله خصـوصـيته، مثلما يفعل البعض الآن حين يُشـكَّل جرن المعمودية من

كتلة واحدة من الجرانيت، يُحفَر داخلها الجرن نفســـه وهو مُكلِّف بالطبع. وفي القبور هناك من يشـــيد مدفنًا خاصًـــا له من الرخام والجرانيت، ويزيّنه جيدًا ويحصّـنه ضـد اللصـوص. إلى ذلك يشـير القديس متى «ووضَـعَهُ في قَبرِهِ الجديدِ الّذي كانَ قد نَحَتَهُ في الصَّـــخرَةِ، ثُمَّ دَحرَجَ حَجَرًا كبيرًا علَى بابِ القَبرِ ومَضَى» (متى٢٧: ٦٠).

ويشـير القبر الجديد إلى بطن العذراء، والتي تجسـد منها الرب ولم يكن أحد قد وُلِد منها، كما لم يولد أحد بعده من ذلك البطن البتولي، فالعذراء هي دائمة البتولية، وإلى ذلك تشـــير نبوة حزقيال النبي: «فَقَالَ لِيَ الرَّبُّ: هذَا الْبَابُ يَكُونُ مُغْلَقًا، لاَ يُفْتَحُ وَلاَ يَدْخُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ، لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَ إِسْرَائِيلَ دَخَلَ مِنْهُ فَيَكُونُ مُغْلَقًا» (حزقيال٤٤: ١). كذلك دخل المســيح قبرًا جديدًا لم يُدفَن فيه أحد من قبل، وكان ذلك بتدبير منه، لئلا إذا دُفِن في قبر عام ثم قام من الأموات، يظن البعض أن الذي قام هو أحد المدفونين بالداخل. وقد خرج المســيح من القبر وهو مغلق أيضًـــا، وأمّا الملاك ميخائيل فقد دحرج الحجر عن القبر وجلس فوقه ليؤكد للناظرين أنه قد قام فقد قال للنســـوة: «ليس هو ههنا، لأَنَّهُ قامَ كما قالَ! هَلُمّا انظُرا المَوْضِـــعَ الّذي كانَ الرَّبُّ مُضـطَجِعًا فيهِ» (متى٢٨: ٦). كما لم يُدفَن في هذا القبر إنسـان آخر، وإن كان المســيحيون في أورشــليم قد بدأوا لاحقًا في بناء قبورهم إلى جوار قبر المســيح على الجلجثة، وكانت وما تزال شــهوة قلب الكثيرين أن يُدفَنوا إلى جوار قبره.

تكفين المسيح:

ذكر القديس يوحنا قائلًا: «وجاءَ أيضًــا نيقوديموسُ، الّذي أتَى أوَّلًا إلَى يَســـوعَ ليلًا، وهو حامِلٌ مَزيجَ مُرٍّ وعودٍ نَحوَ مِئَةِ مَنًا» (يوحنا ١٩: ٣٩)، أي مـا يعـادل مئتي رطـل حنوط، مع الكتـان، وهي كميـة كبيرة جـدا لا تُســتَخدَم إلّا مع الأمراء والأغنياء فقط. وكان التكفين عادة يتم بلفّ شــرائح الكتان وفوقها طبقة من الحنوط والأطياب حول الرجل الواحدة ثم الرجل الأخرى، ثم تُلَفّ الرجلان معًا بشـــرائط مع الأطياب، ومن ثَمّ يتكرر نفس العمل مع الذراعين، كل على حدة. وبعد ذلك تُضَـــم الذراعان ويُلَف الجذع كله حتى الرقبة، وأمّا الرأس فإنه يُلَف بمنديل ويُعقَد من الخلف وذلك بعد وضـــع كُرتين من الحنوط فوق العينين. ولكن في هذه الحالة ربما تعجلوا بســبب دخول الســبت، ولم يســتطعوا أن يتمموا هذه العادة بالقدر الكافي لضيق الوقت، ولذلك قبل السيد المسيح الطيب من مريم عندما سكبته على رأســه، قائلًا إنها فعلت ذلك لتكفينه، أي أنها اســتبقت الحدث لتفعل ما لن يســتطيع المحبون فعله كما ينبغي «فعَلِمَ يَســوعُ وقالَ لهُمْ: لماذا تُزعِجونَ المَرأةَ؟ فإنَّها قد عَمِلَتْ بي عَمَلًا حَسَـنًا!... فإنَّها إذ سكَبَتْ هذا الطّيبَ علَى جَسَدي إنَّما فعَلَتْ ذلكَ لأجلِ تكفيني» (متى١٠:٢٦،١٢).

وهكذا دُفِن المسيح بعد أن كفّنه يوسف ونيقوديموس، ونحن نعرف من التقليد أنهم كانوا في ذلك الزمان يضــعون ريشــة ناعمة تحت الأنف للتأكُّد

إن كان الشـــخص قد مات بالفعل، وذلك عن طريق ملاحظة إن كانت تتحرك أم لا. ويقول التقليد إن الرب فتح عينيه لهما امتنانًا وحبًّا، فهتفا على الفور: "قدوسٌ الحيّ الذي لا يموت"، وهى التســـبحة التي تُقال بأكثر من طريقة ليلة ســـبت الفرح (آجيوس أثاناتوس ناي نان= قدوسٌ الذي لا يموت ارحمنا).

وُضِـــع الجســـد المقدس برفق على المصـــطبة بداخل القبر، ثم تعاون الصـــديقان على دحرجة الحجر على فوهة القبر، ولما شـــكّك بعضٌ من رؤساء اليهود في إمكانية سرقة الجسد، طلبوا من بيلاطس أن يأمر بضبط القبر، فســـمح لهم بحفظ القبر بالجنود والختم، حيث كانت العادة المُتّبَعة هي التثبيت بالشرائط والشمع، ذلك بوضع طرف شريط أو حبل على جسم القبر من جهة، بينما يُثبَّت الطرف الآخر في الحجر، ومن ثم يُغرَس خاتم الحاكم –أي بيلاطس– في الشمع من الجهتين.

جديرٌ بالذكر أن الجنود الذين يتسلّمون الحراسة، عليهم في البداية أن يتســـلموا ما ســـيحرســـونه، وفي هذه الحالة يطمئنون على جســـد الميت بالداخل، وذلك قبل وضـــع الحجر والختم، وكان الجنود بحســـب القانون، عبارة عن أربعة في الوردية الواحدة ومدتها ســـت ســـاعات حســـبما ورد في

سفر الأعمال، حيث تمت حراسة القديس بطرس بين أربعة أرابع من العسكر، أي أربع ورديات (أعمال٤: ١٢).

المسيح داخل القبر:

كان اللاهوت متحِّدًا بالجسد، فلم يفسد وظلّ كما هو، والنفس كذلك نزلت إلى الجحيم، وخلّص المسيح المأسورين، وكان موت المسيح جسديًا هو انفصال النفس عن الجسد، ومن هنا نسهر حوله في قبره "ليلة الأبوغالمسيس" لنسبّحه طوال الليل لأنه غير المائت، ونتذكّر كل القصص التي فيها نجا الأبرار من الظلم والتهم والمرض والموت.

وعند القيامة:

مكث المسيح داخل القبر حوالي ست وثلاثين ساعة فقط، أي أقل من ثلاثة أيام وأكثر من مدة يوم واحد، وذلك بتدبير من الله، فهو القائل: «لي سُلطانٌ أنْ أضَعَها ولي سُلطانٌ أنْ آخُذَها أيضًا..» (يو١٠: ١٨)، فإذا مكث داخل القبر أقلّ من يوم واحد فقد يظنّ البعض أن موته لم يكن موتًا وإنما مجرد إغماءة، وإن مكث أكثر من ثلاثة أيام فإن الجنود سيتركون القبر ومن ثَمّ فقد يظنّ البعض أنه لم يقم أو أن الذي قام هو شخص آخر؛ ومن ثَمّ كان تدبير الله أن يقوم في ذلك الوقت، قام عند فجر الأحد، قام «ناقِضًا أوجاعَ الموتِ، إذ لَمْ يَكُنْ مُمكِنًا أنْ يُمسَكَ مِنهُ» (أعمال٢: ٢٤)، وتزلزلت الأرض فرحة بقيامته، مثلما تزلزلت قبلًا عند موته لاستقبالها إيّاه في باطنها كميت.

حدثت الزلزلة لكى ينتبه الحراس، وليُفاجَأوا بقيامة المسيح، وليروا القبر الفارغ بأنفسهم وينظروا الملاك، ولكى يدركوا أن الأمر من الله وليس حادثة سرقة جسد. وجاء ميخائيل رئيس الملائكة الجليل، ودحرج الحجر عند باب القبر وجلس فوقه "في تحدٍّ لقوات الجحيم" أنها لم ولن تستطيع أن تمسكه. والتعبير الصحيح هو أن "المسيح قام والدليل هو القبر الفارغ"، وليس تعبير: "القبر فارغ إذ قد قام المسيح"!!

ولكن لماذا ذهب الحراس إلى رؤساء الكهنة، وليس إلى بيلاطس أو قائدهم الضابط، أم أن رؤساء اليهود سمعوا بالخبر فأسرعوا ليساوموا الجند، أم أدرك الجنود أنفسهم أن بيلاطس ليس معنيًا بالقضية، بدليل أنه عندما احتج اليهود عند دفن المسيح بأن تلاميذه سوف يسرقونه، طلب منهم أن يضبطوا القبر كما يشاءون (بالطريقة التي تروقهم)، فقد حاكمه أمام الجميع وأمر بصلبه، وهو من ثَمّ ليس مسئولًا عمّا يحدث بعد ذلك، لا سيما وأنه عندما طلب يوسف الرامي الجسد المقدس منه، استدعى بيلاطس قائد الجند واستفسر منه إن كان المصلوب قد مات سريعًا هكذا، ولما تحقق من موته سمح له.

من ثَمّ فقد ذهب الجند إلى الأشخاص الذين كانوا وراء كل تلك الأحداث الدامية، ولكن على أيّة حال فقد نجح الرؤساء في رشوة الجنود، ولكنهم لم يقدروا على القضاء على الخبر، لقد كان الرؤساء يدركون جيدا أنه سيقوم فقد وعوا النبوات ودرسوها، كما أنه ما من مرّة تحدّث عن

الصـــلب إلّا وتحدث عن قيامته: «وفي اليومِ الثالثِ يقومُ..»، لذلك كانت خشيتهم كبيرة من ذلك.

القبر الشاهد:

شـــهود القيامة كُثُر: منهم القبر الفارغ، والحجر، والزلزلة، والأكفان، والملائكة، والتلميذان، والحرّاس، ورؤســـاء الكهنة، والتلاميذ، وجراحات المسيح في جسده..

ولكن كيف شـــهد القبر؟ عندما دخل التلميذان بطرس ثم يوحنا (كما ورد في يوحنا ٢٠) والحراس بالضـــرورة، قد وجدوا الأكفان ملفوفة في ناحية والمنديل في ناحية أخرى، فإذا كان التلاميذ هم الذين سـرقوه لحملوه كما هو توفيرًا للوقت، وإذا كان اللصـوص فما يهمّهم هو ما مع الميت وليس الجسد وحده، وحتي إذا كان الجســـد هامًا لهم، فما الداعي لبذل الجهد والوقت في فكّ الأكفان، بل ليفككونها على مهل.

ومن هنا فان إيعاز الرؤساء بأن«تلاميذَهُ أتَوْا ليلًا وسَرَقوهُ»(مت٢٨:١٣) هو قول مثير للســـخرية، فلماذا يفكّكونه أولًا؟ ثم كيف يفعلون ذلك في وجود الحجر والذي يحتاج جهدًا لرفعه مع ما يحدثه ضـــوضـــاء؟ والحراس! كيف يعترف الجنود أنهم ناموا وتركوا حراســـتهم ويعرّضـــون أنفســـهم للقتل، وإذا كانوا نيامًا فمن أين لهم أن يعرفوا أن التلاميذ هم الذين ســـرقوه. كما أن

الأبحاث التي تمت على الكفن المقدس لاحقًا، أثبتت أن نورًا عظيمًا خرج من الجســـد وأثّر في الأكفان، مما يدلّ على مجد اللاهوت الذي ترك أثره في الثياب، مثلما حدث في التجلّي حين أضـــفى اللاهوت مجده على الثياب: «وصـــارَتْ ثيابُهُ تلمَعُ بَيضـــاءَ جِدًّا كالثَّلجِ، لا يَقدِرُ قَصّـــارٌ علَى الأرضِ أنْ يُبَيِّضَ مِثلَ ذلكَ» (مرقس٩:٣).

القبر الآن:

القبر المقدس الآن عبارة عن مستطيل لـــــ"باب شرقي"، وفى الداخل قناديل كثيرة لكنائس كثيرة، وللكنيسة القبطية قنديل فضي كبير، وقطعة من الحجر الذي كان على القبر مكسوًا بالرخام من كل ناحية، فيما عدا السطح حيث غُطِّي بالزجاج بعد سنة ١٩٤٤م.

المسيحُ قاهرُ الموت

ورثت البشرية بالسقوط فساد الطبيعة، ودخول المرض، وتمرّد الأرض، وتجاسر الشياطين، ودخول الموت إلى العالم؛ وبتجسد المسيح تجدّدت الطبيعة البشرية، وأعلن الرب سلطانه على المرض، وأعاد للإنسان سلطانه على الطبيعة، وسلّمه كيف يهزم الشيطان ويغلب الخطية والعالم، فترك لنا شيطانًا مهزومًا، وعالمًا مغلوبًا، ودواءً للخطية.

أمّا الموت فقد داسه إذ دخل إلى عرينه وهزمه، وكان المسيح في إرهاصة مبكرة قد اقتحم الموت يوم السبت إذ أقام لعازر بعد أربعة أيام، وقال لمرثا: «أنا هو القيامَةُ والحياةُ. مَنْ آمَنَ بي ولَوْ ماتَ فسيَحيا، وكُلُّ مَنْ كانَ حَيًّا وآمَنَ بي فلن يَموتَ إلَى الأبدِ» (يوحنا١١: ٢٥-٢٦).

ويُسمّى ذلك في فكر الآباء شفاء الضد بالضد، هكذا تقول الليتورجية: "بالموت داس الموت"، وحين دخل إلى أقسام الأرض السفلى فرح الشيطان للوهلة الأولى، إذ ظنّ أنه سيقبض عليه مثل جميع الذين ماتوا من قبل، ولكنه رُوِّع عندما اهتزّ المكان بقوة وسقطت الأبواب والمصاريع، ونقول في ذكصولوجية القيامة: "وأخرج مختاريه بفرح وتهليل". لذلك جاء المسيح «لكَيْ يُبيدَ بالموتِ ذاكَ الّذي لهُ سُلطانُ الموتِ، أيْ إبليسَ» (عبرانيين٢: ١٤؛ راجع أيضًا أفسس٤: ٨،٩؛ بطرس الأولى٣: ١٩).

كـان الموت مرعبًـا للجميع، وكـان الجميع يقفون أمـامـه عـاجزين وصـــامتين، فكل الآمال تتوقّف عند الموت والقبر، حتى إن داود الجالس في التراب باكيًا ابنه قام وبدّل ثيابه إذ انتهت آمال شـفائه، ومن ثَمّ صـرّح صـاغرًا: «أنا ذاهِبٌ إليهِ وأمّا هو فلا يَرجِعُ إلَيَّ» (صموئيل الثاني١٢:٢٣).

وكان الموت بالنســبة للناس ســرًّا رهيبًا، لا يدري أحد أين يذهب الميت وماذا يصـنع؟ وفكرة الجحيم عند الناس (ويعرف بـــ: شـاؤول، هاديس أو عالم الموتى الســفلي) توحي باللاعودة، وقال يعقوب لبنيه: «تُنزِلونَ شَـيبَتي بحُزنٍ إلَى الهاويَةِ» (تكوين٤٢:٣٨).

وهكذا كان سـلطان الموت قديمًا، مثل وحش مفترس مرعب عَجَزَ الكل عن منعه، وعجزت البشـرية أمام سـلطانه، وبينما قد يتكاتف البشـر على وحش كاسر فيقتلونه مثل الأسود والكوبرا وغيرها، إلاّ أنهم يشعرون بالعجز أمام الموت.

والناس مستعدون لدفع المال لعلاج شخص، ودفع المال لتخليصـه من السجن، ومناقشة الخصوم للوصول إلى حلول، واختراع الأدوية لنجاة الناس من الموت، ولكن حتى الآن، ورغم كل ما وصـــل إليه العلم من الخريطة الجينية، إلى اسـتنسـاخ الأعضـاء، إلى أدق الجراحات، إلى الخوض في أســرار الكون وغيرها، إلاّ أنهم لم يســتطيعوا أن يغلبوا الموت حتى مهما تطور العلم واستطاع أن يبقي الإنسان على قيد الحياة سنين طويلة.

المسيحيون فقط هم الذين غلبوه: «لأَنَّهُ إِنْ كانَ بخَطيَّةِ الواحِدِ قد مَلكَ الموتُ بالواحِدِ، فبالأولَى كثيرًا الّذينَ يَنالونَ فيضَ النِّعمَةِ وعَطيَّةَ البِرِّ، سيَملِكونَ في الحياةِ بالواحِدِ يَسوعَ المَسيحِ!» (رومية٥:١٧). ومن ثَمّ اعتبر الآباء الأولون –كما قلنا سابقًا– أن نزول المسيح إلى الجحيم وتخليصه الراقدين على الرجاء هو أولى فعاليات القيامة، ومن ثَمّ فإن أيقونة نزول المسيح إلى الجحيم هي أيقونة القيامة الرسمية في الكنيسة إذ أن المسيح بموته انتصر على الموت، وبالتالي فالقيامة ظهرت منذ موته. فالجسد السليم والنور الباهر الذي ظهر في الكفن وخروجه بنفسه من الأكفان والقبر دليل أنه لم يُمسَك من الموت. وكان يجب أن يبقى المسيح في القبر أقل من ثلاثة أيام ليقوم في وجود الحراس لينضموا إلى شهود القيامة، وأكثر من يوم كامل لئلا يظن المشكِّكون أنه كان في إغماءة. ونصلي في الليتورجية: "السلام للقبر الفارغ الذي صار ينبوع حياة".

إن المصارع القوي لا يختار خصمه، ولا الساحة ولا التوقيت، هكذا السيد المسيح، لقد قال لهم: «انقُضوا هذا الهيكلَ، وفي ثلاثَةِ أيّامٍ أُقيمُهُ". فقالَ اليَهودُ: "في سِتٍّ وأربَعينَ سنَةً بُنيَ هذا الهيكلُ، أفأنتَ في ثلاثَةِ أيّامٍ تُقيمُهُ؟". وأمّا هو فكانَ يقولُ عن هيكلِ جَسَدِهِ. فلَمّا قامَ مِنَ الأمواتِ، تذَكَّرَ تلاميذُهُ أَنَّهُ قالَ هذا، فآمَنوا بالكِتابِ والكلامِ الّذي قالهُ يَسوعُ» (يوحنا٢:١٩–٢٤).

دخل المسيح في حلبة صراع ومعركة فاصلة في تاريخ البشرية، واجه فيها الموت، وقال: «يا أَبَتاهُ، في يَدَيكَ أستَوْدِعُ روحي» (لوقا ٢٣:٤٦)،

وليس في يدي الشيطان، وهذا ما لم يستطع غيره أن يقوله، بل أن الشيطان صُعِق عندما سمعها، لأنه كان "يُورِّد إليه جميع الأرواح!".

المسيح هو الحياة:

قال السيد المسيح أنا هو: القيامة، والحياة، والطريق، والحق، والباب، والراعي الصالح، والخبز الحي، والماء الحي، والألف والياء، والبداية والنهاية، والأول والآخِر، والسرمدي، والحي وكنتُ ميتًا؛ كما رآه يوحنا الحبيب "حملًا قائمًا كأنه مذبوح" ليدلّ بذلك على أن الحياة فيه «فيه كانت الحياة» (يوحنا١:٤)، وهو الذي طمأننا قائلًا: «أنا حَيٌّ فأنتُمْ ستَحيَوْنَ» (يوحنا ١٤:١٩)، ولم يجرؤ أي إنسان أو نبي على قول مثل ذلك، بل وكأن لسان حال كل منهم: "انا ميت وأنتم ستموتون"!!

وعبّر القديس بطرس بتلقائية، أو بالأحرى ليس من ذاته بل أعلمه الآب، فقال: «أنتَ هو المَسيحُ ابنُ اللهِ الحَيّ!» (متى١٦:١٦)، بل جاء القَسَم التلقائي من المسيحيين "المسيح الحي"، حتى إخوتنا المسلمون يعترفون أنه حيّ!

تؤكّد صلوات وتسابيح ليلة سبت الفرح أنه كان حيًّا، وطوال الليل نسبّح: "آجيوس أثاناتوس ناي نان" (قدوسٌ الذي لا يموت، ارحمنا). وتدور القراءات حول هذه الفكرة أي الانتصار على الموت: داود الصغير يهزم الدب والأسد ثم جُليات؛ وبنو إسرائيل ينجون من الهلاك بعبور البحر

الأحمر؛ وحَنّة العاقر تلد (تخرج الحياة من المستودَع الميت "القبر")؛ وحزقيا يطول عمره خمس عشرة سنة؛ ودانيال والفتية الثلاثة ينجون من الموت؛ وسوسنة تنجو من الموت بحكمة دانيال (يشير إلى المسيح)؛ بل ونصلي مجمع القديسين في القداس لأن الفردوس فُتِح لهم (بعكس خميس العهد حيث لم يتم الفداء بعد).

المسيح المعلَّق على الصليب:

كان المسيح وهو معلَّق يشبه ثمرة مغرية فوق شجرة الصليب ("ϣⲉ شي" القبطية تعني: خشبة، أوشجرة، أوصليب)، فأغرت الموت أن يبتلع المسيح، ولما ابتلعه كان في الواقع كمن ينتحر مثل الذي يصارع آلة تدمير! أو مثل الظلام الذي يبتلع شمعة، فما أن تشتعل حتى تبتلع هي الظلام بدورها، هكذا المسيح غلب الموت.

كان ممكنًا ألاّ يموت، ولكنه مات بدلًا منا، وبالموت داس الموت، إذ لم يكن ممكنًا أن يُمسَك منه، وكانت مسألة الموت بالتالي عابرة لم تفرض نفسها عليه، وهكذا بموته أبطل عزّ الموت، يقول الثديس بطرس: «الّذي أقامَهُ اللهُ ناقِضًا أوجاعَ الموتِ، إذ لَمْ يَكُنْ مُمكِنًا أنْ يُمسَكَ مِنهُ» (أع٢: ٢٤).

نتيجة قيامة المسيح، وهزيمة الموت:

لم يعطنا المســـيح ألاّ نموت وإنما أعطانا أن نقوم بعد الموت، وما لم نمت فكيف سندخل إلى الحياة الأبدية؟ ومن ثَمّ أصبح الموت هو الموصِّل إلى الأبدية، وليس كما كان قبلًا يلقي في الجحيم فقط، بل أصـــبح الأمر سيّان «لأَنَّنا إِنْ عِشنا فللرَّبِّ نَعيشُ، وإِنْ مُتنا فللرَّبِّ نَموتُ. فإِنْ عِشنا وإِنْ مُتنا فللرَّبِّ نَحنُ» (رومية١٤: ٨)، بل اســتخفّ الناس بالموت، ويقول البابا أثناسيوس الرسولي: "أمسى الموت مثل لص مقيّد اليدين والرجلين، يمشي في الشــارع فيهزأ به المارّة، ويقذفه الأطفال بالحجارة، وتسـخر منه النسـوة قائلات: أين شـــوكتك يا موت؟ أين غلبتكِ يا هاوية؟"، بل وأكثر من ذلك، أصـبح الناس يسـعون إلى الموت ويرحّبون به، وينطلقون نحو الاسـتشـهاد بفرح، وحتى الأطفال استخفّوا بالموت، وعندما هدّد الوثنيون الفتى بوليبيوس أنهم سيقتلونه ما لم يدلّهم على سراديب المسيحيين حيث يختبأون، تعجب منهم قائلًا إنه يرى كل يوم بعضًـا من أقاربه يموتون، وأنه من ثَمّ أصـبح لا يخشى الموت. وهكذا تجاسر الناس على الموت!

«لا تخَفْ، أنا هو الأَوَّلُ والآخِرُ، والحَيُّ. وكُنتُ مَيتًا، وها أنا حَيٌّ إِلَى أبدِ الآبِدينَ! آمينَ. ولي مَفاتيحُ الهاويَةِ والموتِ» (رؤيا ١: ١٧، ١٨).

والقبور تفتحت ...

وَإِذَا حِجَابُ الْهَيْكَلِ قَدِ انْشَقَّ إِلَى اثْنَيْنِ، مِنْ فَوْقُ إِلَى أَسْفَلُ. وَالأَرْضُ تَزَلْزَلَتْ، وَالصُّخُورُ تَشَقَّقَتْ، وَالْقُبُورُ تَفَتَّحَتْ، وَقَامَ كَثِيرٌ مِنْ أَجْسَادِ الْقِدِّيسِينَ الرَّاقِدِينَ وَخَرَجُوا مِنَ الْقُبُورِ بَعْدَ قِيَامَتِهِ، وَدَخَلُوا الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ، وَظَهَرُوا لِكَثِيرِينَ. (متى٢٧: ٥١-٥٣).

من بين العجائب والنتائج الفورية لموت المسيح على الصليب، الزلزلة العظيمة وتصدُّع الصخور، ونتج عن ذلك تفتُّح القبور، والمعنى هنا بقدر ما هو أحداث حقيقية حدثت فإن الهدف منها والرموز المقصودة، أغنى بكثير من مجرد تلك الحوادث.

لقد جاء ذلك إعلان من الموتى الراقدين على الرجاء، بأن العتق من الأسر قد تم بالفعل، وإن ما قاله لاحقًا كلٌّ من القديس بولس والقديس بطرس كان صحيحًا، وخبرة مبنية على عدّة حقائق من بينها قيامة هؤلاء القديسين.

وأما المعنى السري لهذا القيام فهو أن يدخلوا إلى المدينة المقدسة ومنها إلى الهيكل ومن خلال حجابه يجدون طريقًا إلى السماء، ولذا ارتبط انفتاح القبور بانشقاق حجاب الهيكل.

وأمّا الدليل على قيامتهم فهو ظهورهم لكثيرين من المدينة المقدسة، وبالتالي فإن روايات أولئك الذين شاهدوهم لا يمكن إغفالها أو التشكيك فيها، فلم يظهروا لشخص واحد أو مجرد رؤيا أو أحلام للبعض، بل ظهروا لكثيرين، لا شك أنهم ظهروا للذين يعرفونهم، ليكونوا شهودًا أقوياء.

من ثَمّ فإن ظهورهم هذا لكثيرين يُحسَب بلغة الكتاب "باروسيا" أي استعلان قيامة السيد المسيح، إذ صار ظهورهم تأكيدًا لانتصار المسيح على الموت، وهكذا صاروا ضمن كوكبة شهود القيامة المعروفين من خلال الظهورات الأحد عشر المعروفة.

ولكنهم قاموا بعد أن قام المسيح أولًا، وبينما رأى البعض أنهم لم يظهروا لهؤلاء الكثيرين إلا بعد قيامة المسيح، فإن الرأي الغالب أنهم لم يخرجوا من قبورهم قبل قيامة المسيح وظهوره للبعض، لأن المسيح هو باكورة الراقدين «ولكن الآنَ قد قامَ المَسيحُ مِنَ الأمواتِ وصارَ باكورَةَ الرّاقِدينَ» (١كورنثوس١٥: ٢٠).

كثير من أجساد القديسين الذين رقدوا:

من هم الذين قاموا؟ ولماذا لم يقم الكل؟ قال البعض من الشـــرّاح إنهم الآباء الأُوَل، والبعض قال إنهم الذين اُستُشـهِدوا لأجل الله، أي سـاروا نفس طريق الآلام فتألموا مع الرب وقاموا معه، وبالتالي كان يجب أن يكونوا الشهود على انتصار المسيح على الموت، في ذلك اليوم الذي نزل فيه إلى الجحيم، أشخاص كثيرون معروفون لدى الأحياء.

ولكنهم عادوا إلى قبورهم بعد أن أدّوا الشـــهادة المطلوبة منهم،إنهم يذكّروننا بلعازر حبيب الرب، وابنة يايرُس، وابن أرملة نايين، وافتيخوس الشـــاب الذي أقامه بولس من الموت، وطابيثا التي أقامها القديس بطرس، وأولئك الذين أقامهم القديسون في التاريخ الكنسي، الكل عاد من جديد إلى قبره ليقوم عند مجيء المسيح في نهاية الأيام.

ومن ثَمّ فإن قيام هؤلاء القديسين عقب انتصار المسيح على الموت، كان دليلًا لا يقبل الشك على قيامة الأجساد مرة أخرى، مادام المسيح قد داس الموت وقام. ودليل آخر على نصيبنا نحن في قيامة المسيح، فهو: «قيامتنا كلنا»، ولم ينتظر الرب حتى يحقق ذلك في اليوم الأخير، وإنما كعربون ومقدمة وطمأنة لأولاده أن الأمر حقيقي، أي قيامة الأموات.

من هنا تعتبر الكنيسة أن أيقونة نزول المسيح إلى الجحيم هي أيقونة القيامة، فالمسيح لم يكن بانتظار مرور بعض الوقت ليقوم، فهو ليس تحت سلطان الزمن، بل أنه اقتحم الموت في سبت لعازر ليعلنها قوية وواضحة، إن الأمر محسوم وأنه بحسب التدبير: «وضع نفسه» وأطاع حتى الموت،

موت الصـليب، ولم يكن في احتياج إلى بعض الوقت ليُشـفى من جراحاته أو ليستعيد قوته!!

يقول القديس إبيفانيوس أسقف قبرس:

"إن الله رقد في الجســـد وذهب ليوقظ الراقدين منذ الدهور، الجحيم تنهّدت، الله رقد هنيهة فانتشـل الراقدين في الجحيم، ذهب يطلب أبانا الأول آدم، وليفتقد الجالســـين في الظلمة وظلال الموت، هيا بنا ننزل معه ونرى كيف يوقظ آدم ونوح وإبراهيم وموسـى ودانيال وإرميا ويونان، ونسـمع صـوتًا من أعماق الجحيم: «ليضـئ علينا نور وجهك يارب فنحيا»، ونسمع صـوت آدم الذي رقد منذ زمان ســحيق: 'إني أســمع وقع خطى الرب آتيًا إلينا..' وبينما هو يتكلم دخل الرب حاملًا ســلاح صــليبه الظافر قائلا: 'قم لننطلق من ههنا، لنعبر من الألم إلى الفرح.. إن العرس مُعَد'."

المحد لتدبيرك.. المجد لمُلكك.. المجد لقيامتك" (لحن القيامة توليثو).

سبت الفرح

«وَبَارَكَ اللهُ الْيَوْمَ السَّابِعَ وَقَدَّسَهُ، لأَنَّهُ فِيهِ اسْتَرَاحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ اللهُ خَالِقًا» (تكوين٢: ٣).

سبت الفرح هو السبت الأشهر بين سبوت السنة، ويُسمّى أيضًا سبت النور، وسبت السبوت، والسبت الكبير، وسبت الراحة الحقيقية. وسُمِّي بسبت الفرح لأنه يعقب آلام الرب وموته في يوم سُمِّي "الجمعة الحزينة". وهذا السبت له مذاقة خاصة.. تطلّ القيامة برأسها منه، وهو السبت الوحيد الذي يُصام انقطاعيًا طوال السنة، وبسبب الحدث التاريخي والخلاصي لهذا اليوم، فقد وضع الآباء أن تصلّي الكنيسة أوشية الراقدين صباح جميع السبوت في رفع بخور باكر.

ويُسمّى هذا السبت بـ"سبت النور" نسبة إلى النور الذي يخرج من القبر المقدس في ظهر ذلك اليوم من كل عام، وكذلك لأن السيد المسيح أشرق بنوره على الشعب الجالس في ظلمة الهاوية، فهو شمس البر الذي وهب الشفاء لتلك النفوس. ويُسمّى أيضًا "السبت الكبير"، ربما كان ذلك في سياق تسمية أيام أسبوع الآلام بهذه الصفة: الخميس الكبير.. الجمعة الكبيرة.. السبت الكبير، وربما لارتباطه بهذا الحدث الكبير. ويُسمّى كذلك

"سبت السبوت"، على مثال ملك الملوك ورب الأرباب وإله الآلهة، أي أنه السبت المتقدم بين السبوت.

هذا ويغلب على طقس اليوم وعلى العابدين فيه سمة الارتياح، ربما لما يشيعه الحدث من راحة بعد معاناة أسبوع كامل من الآلام انتهت بالدفن، فقد انتهت المعاناة الجسدية للسيد المسيح وأسلم الروح على الصليب بعد ذروة الآلام، فشعرنا بالراحة بعد أن كنا قلقين ومتوترين وحزانى طوال فترة القبض عليه ومحاكمته وآلامه وصلبه (جدير بالذكر أن بعضًا من ذوي المصلوبين كانوا يدفعون رشاوى ضخمة للحراس ليقتلوا المعلق رحمة به!). كما تعني الراحة أيضًا أن الله نفسه استراح ليس من جهة آلامه ولكن لأنه أتم الفداء، فبعدما أتم الله خلق الخليقة ثم آدم وحواء استراح في اليوم السابع أي السبت، وهنا استراح الرب بعد تجديد الخليقة وتخليص آدم.

ولعل الراحة تختلف عن الفرح، فقد يكون الفرح خارجيًا، وقد يكون وقتيًا.. مجرد فقاعة هواء، في حين أن الراحة عمل داخلي ولمسة إلهية تسبّب شعورًا بالطمأنينة، ولعل الفرق بحساب الوقت هو أن البعض يحزن يوم الجمعة ويفرح الأحد، أي يستبدل الحزن بالفرح، ولكن الكنيسة الواعية المسترشدة بالروح القدس تعلمنا "كيف يتحول الحزن إلى فرح"، ويظهر ذلك جليًا في طبيعة مردات وألحان تلك الليلة حيث تتحول النغمة تدريجيًا من

الحزايني إلى السـنوي (أي العادي) تمهيدًا للفرايحي، ولهذا فإن ألحان ليلة سـبت الفرح لها طابعها الخاص. وهكذا تنقلنا من الحزن العميق إلى المجد من خلال سبت الراحة.

تبدأ الليلة بالمزمور ١٥١ مباشـرة دون مقدمات، والسـبب في ذلك هو أن الكنيسـة ما أن مات المسـيح ووُضِـع في القبر حتى سـهرت إلى جواره تسـبّحه بالمزامير، وقد تراجع هذا الطقس لبعض الوقت قبل أن عادت كنائس عدة إلى ترتيب ورديات من الشـمامسـة يسـهرون بجانب المسـيح المدفون يسـبحونه حتى يصـل بقية الشـعب لينضـموا إليهم قبل منتصـف الليل، وقد نالوا بذلك أعظم شـرف بأن لازموه في قبره وسـبحوه وقدموا علامات الوفاء. وفضـلًا عن أن المزامير مملوءة من النبوات عن السـيد المسـيح، فإن السـيد المسـيح هو داود الحقيقي الذي يرمز إليه داود النبي، وتنتهي تسـابيح المزامير بهذا المزمور «أنا الصـغير في إخوتي والحدث في بيت أبي..»، وبعده مباشـرة يُرتَّل لحن "مارين أو أونه" (فلنشـكر المسـيح إلهنـا مع المرتـل داود النبي) وهو اللحن الـذي يُقـال في تجنيز الآبـاء، وبـالطبع فإن اللحن بكلماتـه المـأخوذة من المزامير يُقال تمجيدًا وشـكرًا للمسـيح، واعترافًا بألوهيته وفضـله، لنؤكد أنه حتى وهو راقد مثل الأموات فهو الله الذي يليق به التسـبيح والسـجود، ومن هنا يُقال نفس اللحن عند نياحة الآباء لأنه وإن كان قد مات بالجسـد فهو سـيقوم مثلما قام المسـيح وصـار باكورة الراقدين، وكما سـهرنا مع السـيد المسـيح إلى جوار جسـده،

هكذا نسهر إلى جوار أجساد الراقدين نسبح المسيح واهب القيامة والحياة (يوحنا ١١: ٢٥).

وتنقسم هذه الليلة الرائعة إلى ثلاثة أقسام؛ الأول: مجموعة التسابيح: وتدور جميعها حول فكرة واحدة وهي النصرة، خروج القوة من الضعف، نجاة كثيرين من الشدة والموت، حدوث معجزات خارقة، داود أصغر اخوته يصير ملكًا، وحنة العاقر والعذراء البتول كلاهما تلدان، ومنسى الذي كاد أن يهلك أُعيدت له بالتوبة كرامته ومُلكه، دانيال ينجو من جب الأسود، والفتية الثلاثة من آتون النار، والعفيفة سوسنة التي نجت من مؤامرة الشيخين، وغيرها... فكيف إذن يُمسَك المسيح من الموت؟

وتبدأ القيامة من فعل الموت، اذ أن أولى علامات وثمار القيامة مبكرًا، هي استخلاص الأبرار من الجحيم، فالسيد المسيح "وطأ الموت بموته"، فقد نزل المسيح ليفتش عن آدم، الذي يعاني من نتائج سقطته، ليبشره بالخلاص الثمين، والدليل أنه أخرجه من الجحيم إلى الفردوس. ولذلك فهذا السبت هو "سبت الفرح".

طبيعة القبر:

لذلك صار القبر موضعًا خرجت منه الحياة، وهذا القبر هو قبر غير عادي، فهو القبر الواهب الحياة، ولو كان المسيح قد قُبر مع آخرين – أو أُستُخدم القبر قبل ذلك– لما تأكد المتشكِّكون من قيامته، ولكن وكما وُلِد من بطن لم يلد من قبل، بل أُعِد له خصيصًا، هكذا القبر، في الأول لفائف

وأقمطة، وفي القبر كفن من الكتان. وكما لم تلد البطن البتول أحدًا بعد المسيح، هكذا لم يُدفن أحد في القبر بعد المسيح، بل ويا للعجب، فقد صار هذا القبر هو "كنيسة القيامة المقدسة". وإلى جوارها، وفي موضع الجلجثة شغف كثيرون بأن تُدفن أجسادهم بعد الموت إلى جوار قبر المخلص.

أمّا عن طبيعة الموجود داخل القبر، فهو جسد انفصلت عنه النفس فقط بينما ما يزال اللاهوت متحدًا به، ولذلك «فيه كانت الحياة»، ويقول التقليد إن يوسف ونيقوديموس عندما كانا يكفّنان جسد المخلص فوجئا بعينيه تنفتحان وعندئذ هتفا: "قدوسٌ الذي لا يموت"، وهي التسبحة التي التقطتها الكنيسة لتجعلها العمود الفقري لتسبيحها طوال يوم سبت الفرح وكل اليوم. هذا تؤكده الأبصالية الشهيرة والتي تُختَم كل ثلاث شطرات بالشطرة الغالية: "آجيوس أثاناتوس ناي نان". بل كان التدبير الإلهي هو النصرة على الموت وابتلاعه بالموت، وكم أحيا موت الشهداء ملايين الموتى بالخطية، وأمات الخوف فيهم فسعوا إلى الموت بفرح. جدير بالذكر أن الأيقونة الكنسية الأصيلة التي تعبر عن القيامة هي نزول المسيح إلى الجحيم وسبي آدم وبنيه من الجحيم.

أمّا قداس سبت الفرح فهو يختلف عن قداس خميس العهد، فهذا لا صلاة صلح فيه ولا مجمع أو ترحيم، لأن الفداء لم يتم بعد وما يزال الراقدون بانتظار المخلص، أمّا في سبت النور فقد افتقد المسيح الموتى

على الرجاء ومن ثَمّ نصلّي المجمع والترحيم، بينما لا نصلّي الصُلح بسبب أن ختم المصالحة وهو "القيامة" لم يوضع بعد على وثيقة الفداء!

ولكن لماذا أقمنا القداس يوم الخميس ويوم السبت؟ فبينما كان المسيح يوم الخميس ما يزال (تحت الحفظ) قبل أن يُقدَّم ذبيحة كحمل حقيقي، والسبب هو أنه تذكار تأسيس سر الافخارستيا، وأمّا قداس السبت فنصنعه كمن هو متشوِّق بلهفة أن يقدِّم المسيح نفسه، فما أن مرّ الجمعة حتى أسرعنا بعمل الإفخارستيا واحتفلنا فيها بهذه المناسبة بأولئك الذين أُعتقوا من أسر الشيطان.

وأما القسم الثالث – أو بالأحرى الثاني– فهو "الأبوغالمسيس"، أي قراءة سفر الرؤيا، وسبب هذا التوقيت هو انفتاح السماء على الأرض بالفداء بعد أن صنع المسيح الصلح بدم صليبه، وأصبح الطريق بالتالي ممهدًا إليها، ويصف القديس يوحنا السماء ومجدها. ومحور السفر هو الحمل المذبوح والقائم معًا، والذي يُقدَّم له التسبيح على مدار السفر كله لأنه «ذُبِح واشترانا لله بدمه»، ولكن السفر ينبّه إلى أن هناك صراعًا وحروبًا وشرورًا، ولكن الكنيسة ستنتصر في النهاية. وجدير بالذكر أن قراءة سفر الرؤيا هو إشارة إلى الطقس القديم حين كان الكتاب المقدس يُقرأ كاملًا في أسبوع الآلام، ولكن الكنيسة الواعية تضع سفر الرؤيا ليلة سبت الفرح بينما تقرأ انجيل القديس يوحنا ليلة عيد القيامة وذلك لارتباط كل سفر منهما بالمناسبة التي يُقرَأ فيها، ولكن اختفى هذا الطقس في القرن الثاني

عشر ولم يتبقَّ منه أسفار تُقرَأ بكاملها مرة واحدة سوى سفر طوبيا والبشائر الأربعة وسفر الرؤيا.

هكذا تتسم هذه الليلة الرائعة ذات الخصوصية الشديدة بالارتياح والحميمية واستنشاق عبير الفردوس واكتحال العينين بمشهد الأبدية من خلال بوابة الأبوغالمسيس والتي تعني كشف السر.

مُلاحظاتٌ جديرة بالذكر

في أســـبوع اللام رصـــدتُ عدّة ملاحظات، كما نقل لي البعض ملاحظات أخرى، وهذه وتلك تؤكّد لنا لماذا وكيف يتفاعل الأقباط مع أحداث أسبوع الآلام والقيامة:

+ في بعض القرى لاحظتُ أن النســوة يرتدين الملابس الســوداء في أسبوع البسخة، ولمّا سألتهن عن السبب قلن في تأثر: "وكيف لا والمسيح يتألم ويُهان لأجلنا، أفما نفعل ذلك إذا تألم بعض من أقاربنا أو تنيح؟ فكم بالأحرى المسيح وهو يتحمل كل ذلك لأجلنا".

+ وقال آخر معلّقًا: "إن ما يحدث في أسبوع الآلام، ليس مسرحية أو اسكتش تعرضه الكنيسة للحضور لتحكي لهم قصة عمرها ألفا عام! كلاّ وإنما نحن نحيا الحدث ساعة بساعة متفاعلين معه".

+ وقال ثالث: "إنني أعاني يوم الجمعة الكبيرة – على وجه الخصوص – معاناة نفسية شديدة بسبب ما يكابده المسيح من أجلي، وأشعر برغبة جامحة مرة بعد أخرى، في التسلّق على مقصورة الصلبوت لإنزال المسيح من على الصــليب علّي أهدأ وأســتريح، إلى أن أســمع تلك العبارة العجيبة «وأسلم الروح»، فتهدأ لحظتئذ مشاعري وأستريح لراحته من المعاناة الرهيبة للألم". ويقول المؤرخين إن المعلَّق على الصـــليب يعاني آلامًا رهيبة لا

يمكن وصـــفها، لذلك وعندما كان الحرّاس يتقدمون ليقتلوه، كانت لحظة قتله هي في الحقيقة لحظة الرحمة.

+ وقالت سـيدة بسـيطة إنها تشـعر بخجل شـديد طوال أسـبوع الآلام، بســبب أن كل ما يعانيه المســيح هو ما كان يجب أن نعانيه نحن، ولذلك فهي لا تســتطيع أن تنظر إليه خلال هذه الأيام، وإنما تذهب عقب بســخة الجمعـة الكبيرة لتقبّـل أيقونـة الـدفن المعلَّقـة على جـدار الكنيســـة بحيـاء وامتنـان. كما اعتاد الكثيرون تنـاول بعض الخمر الممزوج بالمر مشـــاركة منهم للمسيح في آلامه.

ومن هنا فإن الأقباط يحرصـون على التزام الكنيسـة في هذه المناسـبة من كل عام، أطول وقت ممكن، في وقار وحب وسـخاء مشـاعر يسـكبونها عند قدميـه، مقدّمين شـــكرهم ومعبّرين عن محبتهم لفاديهم، معتذرين عن خطاياهم التي ســـببت لـه هذه الآلام: "نحن الذين أخطأنا وهو الذي تألم عنا".

+ ناهيك عن العدد الكبير للأطفال والفتيان والفتيات الذين يحضـــرون ومعهم كتبهم جالســـين في وقار يتابعون الأحداث والقراءات باهتمام ممزوج بالفرح والتأثر.

+ وفي إحـدى القرى روى لي البعض أن رجلًا بســـيطًا كـان يتـابع بـاهتمـام أحـداث يوم الجمعـة، مـا بين النبوات والمزامير والأنـاجيـل

والطروحات، وما يتخلّل ذلك من ألحان، ثم فوجئ الحاضرون وإذا به ينتفض فجأة من مكانه ثائرًا وهو يصرخ مستنكرًا: "ماذا فعل لهم حتى يصنعوا به هكذا؟!.. كفي إهانة وظلم وتجاسُر...".

لذلك يغلب على يوم سبت النور الشعور بالراحة لأن المسيح استراح من آلامه وتم الفداء، ولم يتبقَّ سوى أن نفخر بانتصاره على الموت وفضح سلطان الظلمة وإشهار هزيمة إبليس وتخليص الراقدين على الرجاء، إن هتاف "خريستوس آنستي" يحمل في طيّاته مشاعر الفرح والراحة والنصرة والفخر.

آجيوس أثاناتوس ناي نان.... أيها القدوس غير المائت أرحمنا.

فهرس الكتاب

صفحة

مقدمة ٨
أسبوع البصخة ١٠
سبت لعازر ٢٠
هكذا أحب الله العالم ٢٤
الشعانين والصليب ٣٠
أتان وجحش ابن أتان الرب محتاج إليهما ٣٢
يسوع يبكي أورشليم – مرثية أورشليم ٣٧
خراب أورشليم ٤٢
التينة والرياء ٦٦
ألحان أسبوع الآلام ٧١
حجَر الزاويَا ٧٦
شجرة الحياة ٨١
آلام الرب يسوع النفسية ٨٩
شق الثياب.. ماذا يعنى ١٠٠
لغتك تظهرك ١٠٥
يسوع الشاب النبيل ١١١
دم هذا البار ١١٧
بنات أورشليم ١٢٣
ڤيرونيكا ١٢٩
اللافتة (عِلّة صَلب المسيح) ١٣٣
الخل والمر ١٤٢
حقيقة صلب المسيح ١٤٧
القبر المقدس ١٥٩
المسيح قاهر الموت ١٥٨
والقبور تفتحت ١٧٤
سبت الفرح ١٧٨
ملاحظات جديرة بالتسجيل ١٨٥

إذا كان الصوم الكبير هو المناسبة الجادة، فإن أسبوع الآلام هو المناسبة الأكثر جدية لدى الأقباط خلال العام كله. إن الأقباط يحرصون على التزام الكنيسة في هذه المناسبة، ويقضون فيها أطول وقت ممكن، وقديمًا كانوا يتوقّفون عن العمل للتفرُّغ للعبادة، وكان يُسمَح للمسجونين بحضور صلوات البسخة لعلهم يتخشّعون ويتوبون عن خطاياهم. ويسلك الناس عادة بنُسك شديد في أسبوع الآلام، ويتشح الكثير من نساء القرى بالسواد خلال هذا الأسبوع، وداخل الكنيسة يسلكون في وقار وحب، وسخاء مشاعر يسكبونها عند قدمي المسيح المتألم لأجلنا، مقدّمين شكرهم، ومعبّرين عن محبتهم لفاديهم الحبيب، معتذرين عن خطاياهم التي سبّبت له هذه الآلام، ولسان حالهم: "نحن الذين أخطأنا، وهو الذي تألم عنا".

"المجد لقيامتك أيها المسيح، المجد لمُلكك، المجد لتدبيرك وحدك يا محب البشر".